Gaylord
PAMPHLET BINDER
Syracuse, N. Y.
Stockton, Calif.

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
0038018004

BUTLER CIRCULATION

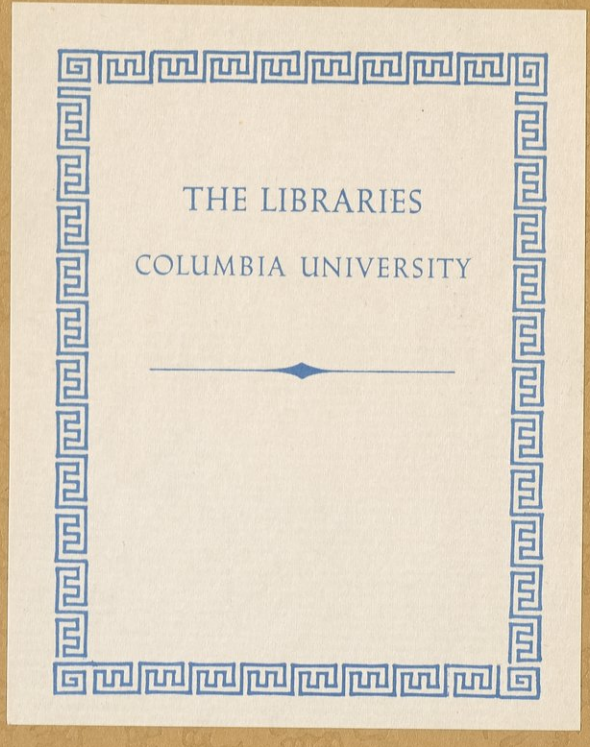

DUE DATE

OCT 3 1 1994

FEB 0 2 1994

MAY 3 1 1994

MAY 3 1 1994

SEP 3 0 1994

GL/Rec AUG 0 9 1994

201-6503

Printed in USA

محمد
Gabr

أحمد حسين

الزواج والمرأة

مطبعة دار الكتب المصرية
١٩٤٦

أحمد حسين

محمد جاد

الزواج والمرأة

مطبعة دار الكتب المصرية
١٩٤٦

الإهـــــداء

الى زوجتى العزيزة وشريكتى فى الجهاد .

الى شهيد مصر وقديس الوطنية ،

الى من تمنيت لو بقى لمصر وذهبت ،

الى الدكتور مصطفى الوكيل ،

أهـدى باكورة رسائلى ،

لإنهاض الشرق العربى وتحريره .

893.791
H95

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف

هـذه رسالة من عشر رسائل كتبتها إبان اعتقالى فى خلال هذه الحرب (من ٤ مايو سنة ١٩٤١ حتى ٤ يونيو سنة ١٩٤٤) . وهذه الرسائل العشر فى الحرب والحرية والمال والعلم والصبر والصدق والقوة والإيمان والوطنية . وقد بدأت هذه الرسائل صغيرة متواضعة، تهدف الى تعليم ابنى الصغير الذى حرمنى الاعتقال من فرصة ملازمته إبان طفولته، ولم أكن أعرف يوم أن اعتقلت ما الذى تخبؤه لى الأقدار، وهل يتاح لى أن أعيش حتى نهاية الحرب وأن أعود الى الحرية والحياة من جديد، أم أنه سيقدر لى الموت بأسلوب أو بآخر فى هذه الحرب الرهيبة، التى وقفت فيها موقف المحارب عن حرية بلادى واستقلالها، ولم أكتم فيها عواطفى وحقيقة أغراضى وغاياتى . كل ذلك دفعنى لكى أشرع فى كتابة سلسلة من الرسائل الى ابنى الصغير، أضمنها آرائى وأفكارى فيما يجب أن تكون عليه أخلاقه فى مقتبل أيامه، وما ينبغى أن تكون عليه أغراضه وأهدافه فى هذه الحياة ... ولم تلبث هذه الرسائل أن تضخمت وتطورت فيما بعد فتحولت من رسائل تهذيبية إرشادية بحتة، الى مناقشة مستفيضة لشتى مشكلاتنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية . وأصبحت كل رسالة من هـذه الرسائل العشر تؤلف سفرا مستقلا يعالج موضوعه علاجا كاملا . وفى هذه الرسالة التى أقدمها اليوم للعالم العربى علاجا لمشكلة الزواج والمرأة وحقوق كل منهما قبـل الآخر ومكانة المرأة فى المجتمع وما لهـا من حقوق وما عليهـا من واجبات ، ولقـد اخترت هـذه الرسالة لتكون أولى ما أطبعه من رسالاتى العشر إيمانا منى بأن موضوع الزواج والمرأة وكل ما يتصل بها هو مشكلة الساعة الاجتماعية فى مصر بل والشرق العربى بأكمله .

ففى العالم الشرقى الاسلامى بصفة خاصة نزوع نحو التحرر والانطلاق فى مجالى الرقى والرفعة . وعندى أنه لا سبيل لتحقيق ذلك كله ما لم تنهض المرأة وتأخذ بنصيبها

الكامل فى هـذا الجهاد وتتبوأ مكانتها اللائقـة فى المجتمع كعضو عامل يتمتع بكل الحقوق التى يتمتع بها أى عضو آخر مدنية كانت أو سياسية . وكثيرا مايظن البعض أن فى نصوص الدين الاسلامى مايحول بين المرأة و بين النهوض الكامل والتحرر، ولذلك فقـد عنيت عناية خاصة بدراسة هذه القضية من الناحيـة الشرعية دراسة مستفيضة كما سيرى المطالع لهذه الرسالة ، وسيثبت لدى كل منصف بعد مطالعتها أن الإسلام وهو الذى كان أعظم محرر للمرأة فى كل عصور التاريخ لايمكن بحال من الأحوال أن يقف حجر عثرة فى سبيل نهضتها ورقيها وتمتعها بالأهلية الكاملة كالرجل سواء بسواء فى سائر شئون الحياة، وليس يعنى ذلك بحال أننى ممن يحاولون إخراج المرأة عن طبيعتها ووظيفتها الأولى كزوجة وأم ، بل إن هذه الرسالة بأكملها هى أكبر مرافعة عن ازواج كما سيرى المطلع عليها، وتدور كلها حول إقامة صرح المجتمع على أساس الأسرة القوية المتعاونة .

وإذا كنت أصرح فى هذه الرسالة أنه لا يوجد نقل أو عقل يحول بين المرأة و بين حق الانتخاب مثلا أو الاشتغال بأى عمل من الأعمال فليس معنى ذلك أننى ممن يرضون عن هذا الإنحلال الخلقى الذى يسود مجتمعنا المصرى الحاضر، أو أننى لست من أكبر أعداء الاستهتار والتبذل الذى يشاهد فى بعض الأوساط المصرية فى الوقت الحاضر . ولعل تاريخ جهادى فى مقاومة المنكرات والموبقات ودخولى السجن أكثر من مرة لهذا السبب هو أكبر شاهد على تقديرى للفضيلة و إيمانى بها .

فاذا كان ما حوته هذه الرسالة فى بعض أجزائها من آراء سيكون محل نقد من البعض الذين يرون خلاف ما أرى، فان شفيعى فيها إننى رجل كرس حياته للجهاد فى سبيل الحق فى جميع صوره وأشكاله وللعمل بكل الطـرق والوسائل المؤدية الى رفعة مصر والعرب والمسلمين ، ولقد اقتنعت (بعد أن فكرت وطالعت ودرست وجربت) بهذه الآراء التى أبادر باعلانها فى هذه الرسالة إيمانا منى أن فى ذلك إحقاقا للحق ونصرة للفضيلة وسبيلا لإنهاض بلادى .

﴿إن أريد إلا الإصلاح ما آستطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾

القاهرة فى { ٢٠ محـرم سنة ١٣٦٥ / ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٤٥ }

أحمـد حسين

الفصل الأول

الـزواج

يا بنى

علاقة هذه الرسالة بالرسائل السابقة عليها

أما وقد دعوتك يا بنيّ لتكون قويا محاربا غنيا عالما، فقد دعوتك بذلك الى المثل الأعلى الذى ينبغى للإنسانية أفرادا وجماعات أن تسعى لإدراكه والحصول عليه، غير أن سنة الحياة قد قضت بأن يكون عمر الإنسان الفرد قصيرا لا يتيح له تحقيق كل آماله؛ فعمره لا يتسع إلا ليضع البذرة دون أن يجنى الثمرة، أو أن يضع الأساس ويرتفع بالبناء دون أن يشهد كماله. وكلما كانت مرامى الانسان عظيمة مات قبل أن يحقق منها إلا أقل من القليل، فما أطول الطريق نحو المثل الأعلى، وما أكثر الدرجات التى تفصلنا عن أهدافنا النهائية؛ بل إن الانسان مجبول على أن يبدأ شوطا جديدا كلما انتهى من شوط، وكلما ظنّ نفسه قد أوفى على الغاية إذا به يرسم لنفسه غايات أبعد شأوا وأصعب منالا وأكثر خطرا. ويظل ذلك شأن الانسان حتى آخر نسمة من حياته، فإذا كل الذى قام به لا يعدو أن يكون نقطة البدء لما كان يرومه ويفكر فيه، مهما بدا ما أنتجه وأحدثه عظيما ورائعا ومترامى الأطراف فى نظر الآخرين، بذلك قضت مشيئة الخالق الذى جعل الموت من نصيب البشر ليكون ذلك آية بشريتهم وربوبيته، وآية فنائهم وخلوده، وآية حدوثهم وقدمه.

شبح الموت وأثره فى الإنسان

ولقد كان منجل الموت المسلط على رقاب العباد جديرا بأن يخمد فى الانسان جذوة العمل والاجتهاد والتطلع للرقى والارتقاء، وهو يرى خاتمة المطاف حفرة من الأرض ضيقة مظلمة؛ لافرق فى ذلك بين غنى وفقير أو جليل وحقير، ولافرق فى ذلك بين الملك والامبراطور وبين العبد والصعلوك، وبين البطل الضرغام الذى دوّخ العالمين شرقا وغربا وأقام الدنيا وأقعدها والانسان الذى ولد وعاش يأكل ويدب على الأرض كما تدب أحقر الحشرات ثم مات فى زوايا الإهمال والنسيان، ولا فرق

بين أعدل العادلين الذين ملأوا الدنيا خيرا وعدلا وأمنا وطمأنينة وأشرس الطغاة الذين غمروا البشر بفيض من الويلات والآلام والفتن، وأخيرا جدا لافرق بين الأنبياء والرسل الذين أشرقوا على البشر بنور إيمانهم وقادوهم بقوة أرواحهم ومنحوهم الأمل والرجاء والحب وأفسق الكفار والملاحدة وطغمة المفسدين الأشرار الذين ينفثون الشك والالتباس والاستهتار، فإنما هو كأس واحدة لا بدّ لكل من أقلته الأرض وأظلته السماء أن يجرعها يوما ما، وأن يصير الى التراب نهبة لهوام الأرض ودوابها وجراثيم الفناء والعدم . لا بدّ لهذه الأصوات المدوية أن تصاب بالخرس، ولهذه العيون المشرقة أن ينطفئ نورها، ولهذه الوجوه النضرة أن يغيض ماؤها، ولهذه الأجساد الغضة أن ينهار كيانها . لا بدّ لهذه الحركة من السكون، وهذه اليقظة من الهجوع، وفى كلمة : لا بدّ للكائن الحىّ من الموت والفناء . فعلام يسعى الانسان ويكد، وفيم يسهر ويجوع، ويصبر ويحتمل الآلام والشقاء! لماذا يقتصد فى شهواته ولا يسرف فى ملذاته، ولماذا يسيطر على غرائزه ولا يندفع مع نزواته ؟ لأى علة يكون الإنسان فاضلا ويكون تقيا، ويكون الانسان كريما محسنا خيرا ورعا ! لماذا ... ؟! لماذا كل هذه القوانين والأنظمة، وهذه العلوم والفلسفة، وهذه الحضارة والمدنيات مادام كل حى الى ممات، وكل جمع الى شتات، وكل جهد يبذل فى مقاومة الفناء لا نتيجة له سوى الفشل والخيبة .

ترياق الموت وإكسير الحياة

ذلك هو الأثر المنطقى الذى كانت حقيقة الموت جديرة بأن تحدثه فى نفس الانسان، لولا أن المبدع الذى أبدع هذا الكون ونظمه، وهذا الخالق الذى خلق الانسان وسلطه على الكون، قد خلق الى جوار الموت من السنن ما يفل من حدّته ويخفف من قسوته، وما يقلل من بطشه ويحدّ من سطوته، بأن جعل الموت لاينال من الانسان إلا العرض دون الجوهر، ولا يفنى منه إلا القشر دون اللباب . فسلطان الموت يقف عندحدّ الجسد دون الروح، ولا يهدّد سوى الفرد دون النوع والمجموع ؛ فجسد الانسان يفنى ويزول، ولكن روحه تبقى أبدا؛ لأنها قبس من روح الكون

وحقيقة الوجود فلا يتطرق إليها الفناء مهما امتدت بها الأعصر والدهور، وذلك أعظم هادم لسلطان الموت فى نفس الانسان، وأكبر حافز له إلى النشاط والعمل؛ فما من إنسان إلا وهو يؤمن بخلود روحه، وبأن له بعد هذا الموت الظاهرى حياة أسعد لو أنه أحسن العمل وأجاد فى هذه الحياة الأولى .

هذا الإيمان الذى سأحدثك عنه بالتفصيل فى رسالتى المقبلة يا بنى، هو الإكسير والترياق الذى يتغلب به الانسان على شرة الموت وما يسكبه من سموم فى النفس .

التناسل يثبت أن الحياة أقوى من الموت

على أن هذا الترياق ليس إلا مسألة وجدانية معنوية فى نهاية الأمر، ما كانت وحدها لتكفى لمقاومة آثار الموت المدمرة، لو لم يكن الى جوارها عنصر مادى محس يؤكد معناها ويعزز حقيقتها . وهى أن الموت اذا كان يهدد فردا بعينه فهو لا يهدد البشر أجمعين، وأن زيدا وعمرا وخالدا وبكرا قد يموتون ولكن بعد أن يخلفوا وراءهم زيودا وبكورا كثيرين، وأن أى جيل من البشر لا يموت قبل أن يخلف جيلا أكثر نفرا وأوسع حيلة وأوفر علما وأعظم قدرة . فاذا كان الموت قد عدا على آدم وحواء فأصار أجسادهما الى الفناء؛ فان الحياة كانت أرجح كفة وأعظم قدرة . وليست هذه الألوف المؤلفة من ألوف البشر إلا نسل هذين الزوجين الأولين : آدم وحواء الأب الأول والأم الأولى، وما من رجل تقع عليه عيناك إلا وهو صورة مكررة لهذا الرجل الأول، وما من امرأة إلا وهى حواء مكررة؛ حتى قصة الاغراء والتحريض على اقتطاف الثمرة المحرمة هى التى لا تفتأ كل أنثى تمثلها مع الرجل وتدعوه اليها وتحضه على اقترافها . وهكذا مات الانسان الأول ولكن روحه انتقلت الى ملايين، والواحد الفرد تحول الى عديد وكثير .

« يا أيها الناس اتقوا ربكم »

﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام (١) ﴾ .

فكأن سلطان الحياة أقوى من سلطان الموت، وكأن منجل الموت إذا حصد مئين من الأفراد فان روح الوجود يخلق بدلا عنهم مئات وألوفا؛ ليتناسلوا بدورهم ويتموا

(١) أول سورة النساء .

ويتكاثروا ، وليدعموا شجرة الحياة ويطاولوا فى فروعها ، ويمعنوا فى مد جذورها وينفخوا فى أريجها ويطيبوا جناها وفاكهتها .

وبهاتين الحقيقتين : خلود الروح وبقاء النوع ، تزود الإنسان بالترياق الشافى المعافى لسم الموت ومخدراته ، وما يشيعه فى النفس من يأس وضعف وكسل ؛ فأقبل الانسان على العمل والبناء والانشاء ، وعمر وأصلح وأحسن . فاذا كان جسده سيفنى فان روحه باقية لتتمتع بثمار ما عمل ، بل إن بقدرته على الأغلب أن يخلف على هذه الأرض بضعة من جسده وقبسا من روحه ؛ لتنعم بطيبات ما عمل ، ولتجنى ثمرة ما غرس ، ولتكمل مابدأ ، ولتبقيه متصلا أبدا بهذه الحياة ، بينما تسبح روحه فى الحياة الآخرة (١) . وما على الانسان ليدرك هذا الأمل المنشود ؛ أمل البقاء والاستمرار فى الحياة بالرغم من الموت والفناء ، إلا أن يطيع غريزته وأن يخضع لما ركب فى طبعه ، وأن يندفع الى حيث تريده الطبيعة أن يندفع نحو هذا المخلوق اللطيف الجميل الرقيق ، الذى قد أعد وجهز بحيث يتحد به ويأتلف معه ويتمازج وإياه ، ويختلط فى أعظم نشوة وسعادة يمكن أن يذوقها أو يحسها البشر . وليس ذلك المخلوق سوى المرأة أو أنثى الذكر .

الغريزة الجنسية أسمى غرائز الانسان

ولعل هذه الغريزة التى تدفع الرجل نحو المرأة ، وتدفع المرأة نحو الرجل هى أسمى وأرفع ما ركب فى طبع الانسان من غرائز ؛ فبقية الغرائز الأخرى إنما ترمى الى المحافظة على الجسد والابقاء عليه من العطب . أما الغريزة الجنسية فغايتها المحافظة على الروح الانسانى والتطور بها لتخليد النوع والارتقاء به ، ولذلك فهى وحدها التى تحفز الانسان إلى الاستزادة من السعى والعمل ، بالرغم من إشباع حاجاته الضرورية من المأكل والمشرب والملبس . وهى التى تحفزه إلى التجمل والتزين والنظافة والبطولة ليستحق إعجاب المرأة . فهذه الغريزة هى التى رفعت عقيرته بالغناء وألهمته الشعر وعلمته التصوير ، وهى التى خلقت الفنون خلقا وأبدعت الموسيقى والأدب ، وهى

---

(١) مصداق هذا الحديث الشريف : « إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة : إلا من صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له » .

التى رققت الحواشى وطهرت الحنان والبر والشفقة والوفاء والإيثار والتضحية ، وأنتجت الفضيلة فى ذروتها العليا وأعنى بها الحب ، وهى التى ملأت الدنيا منافسة ومزاحمة ومصارعة فكان التطور والارتقاء . هى كل شىء وروح كل شىء ؛ لأنها بذرة الوجود ولب الحياة .

بهذه الروح يجب أن ينظر للغريزة الجنسية فتكرم وتحترم ، بل وتمجد وتقدّس باعتبارها سرا من أروع أسرار الخالق التى بثها فى هذا الكون ؛ لتكوّن سبيل الحياة نحو النمو والأزدهار والتطور والارتقاء ، ولذلك فما أصدق وأحق ماروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أنه قال : " حبب إلىّ من دنياكم ، النساء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة " . فاذا علمت أن الصلاة ليست سوى الشكر لرب العالمين ؛ لما أنعم به على الإنسان من نعم أدركت أن النساء أو بالأحرى ما يلقاه الإنسان من سعادة فى الاتحاد بهنّ هو أعظم ما فى هذه الحياة من نعم وأسرار ، جديرة بالحب والتمجيد والشكر لرب العالمين .

« حبب الىّ من دنياكم ... »

ضلال الداعين إلى محاربة الغريزة الجنسية

لست أحسب أن هناك ما هو أدعى لغضب الخالق ونقمته من أن يحاول محاول أن يغض من شأن هذه الغريزة وأن يمتهنها ، مصوّرا إياها بأنها مظهر من مظاهر الحيوانية التى ينبغى التسامى عنها والترفع عن السقوط فى حمأتها ، وأن يعتبر الاتصال الطبيعى بالمرأة لونا من ألوان الدنس والتلوث ، التى يجب أن يتنزه عنها الرجل الطاهر الورع العف ، الذى يريد أن يقترب من الخالق المبدع وأن يرضيه ويتبرر عنده ؛ كما نادى بذلك فريق من الهنود ونفر من المسيحيين ؛ فابتدعوا نظام الرهبانية الذى يقضى عليهم بإخماد غريزتهم الجنسية ومقاطعة المرأة واعتزالها ، واعتبار ما يشعرون به نحوها من انعطاف داخلا فى غواية الشيطان واحبولته التى يتصيدهم بها ؛ ليصرفهم عن عبادة الديان إلى التردّى فى حمأة الرذائل والشهوات . وأنشأوا لذلك الأديار فى الصحارى وعلى قمم الجبال بعيدا عن العمران ، وحبسوا أنفسهم على ما زعموه عبادة بالليل والنهار ؛ وليس وراء ذلك جهل وخبط والتواء فى الطبع وفساد

فى الأرض عظيم . وقد أثبتت التجربة ذلك بما لا يحتاج لكبير شرح أو إسهاب فى تفنيده أو الرد عليه ؛ فتاريخ هذه الأديار التى أنشئت لتضم بين جوانحها الملائكة الأطهار من الشهرة بحيث تكفى مجرد الإشارة إليه ؛ فهو يحوى من الفضائح ويسجل من المخازى والآثام ما أوشك أن يزلزل العقيدة المسيحية لولا أن تداركها الاصلاح البروتستانتى الذى كان فى مقدّمة ما نادى به تخويل رجال الدين حق الزواج فأعاد إليهم الكرامة والاحترام ؛ بعد أن كان رجال الكنيسة قد فقدوا ثقة الناس أجمعين ، ابتداء من البابا رأس الكنيسة ، الذى كان يعتبر معصوما فاكتشفت الشعوب أنه غارق فى الآثام حتى الأذقان ؛ كما يثبت تاريخ آل بورجيا .

فشل كل محاولة لكبت الغريزة الجنسية

والحق أنه ليس أضر على الإنسان من أن يتصدى لمحاربة غرائزه محاولا كبتها والقضاء عليها ؛ لأنه بذلك يعترض مشيئة الخالق الذى جهزه بهذه الغرائز لتؤدّى رسالتها وتقوم بوظيفتها ، وكل محاولة من هذا القبيل مقضى عليها بالفشل والخذلان المبين ؛ ولذلك ترى هذا الشخص المتمرّد على الناموس الإلهى لا يلبث بعد أن يحطم أعصابه ويفسد طبعه أن يرتد مخذولا مدحورا ومتراجعا فى غير انتظام ، بحيث ينقلب تراجعه إلى تدهور شائن ؛ فيتردّى فيما لا يقع فيه الرجل العادى من الآثام ، وربما كانت رواية تايس الخالدة من أروع الصور لهذه المحاولة الفاشلة لمقاومة الغريزة والتمرّد على الطبيعة البشرية ونواميسها ، وكيف انتهت بالقديس إلى كافر ملحد استحق غضب الله ولعنته . على أن هناك حقيقة واحدة تكفى لهدم كل تفكير فى هذا الموضوع موضوع كبح الغرائز الجنسية ومقاومتها باعتباره فضيلة من الفضائل . فالأصل فى الفضيلة أن تكون المثل الأعلى الذى يندب إليه الناس أجمعون ، وأن تكون الجماعة البشرية أكثر سعادة وهناء ورقيا وكمالا عند تطبيقها الاجماعى ؛ فماذا يكون حظ البشر لو أنهم اعتنقوا هذا المبدأ مبدأ القضاء على الغريزة الجنسية ، وقاطع الرجال النساء والنساء الرجال ، وعاش كل من الجنسين على انفراد فى أحشاء الصحارى وفوق قمم الجبال ؟ . أو لا تكون النتيجة الحتمية لهذا الانفصال هى انقراض الجنس البشرى فى أقل من قرن من الزمان ؛ فهل ذلك هو ما تقرّ له عين الخالق وما يحقق

مشيئته فى الخليقة (١) ؟ لو أن الأمر كذلك ، ففيم خلق الخالق الحياة إذن ، وجعل ناموسها الأعظم هو النمو والتكاثر؟ لماذا خلق الذكر والأنثى ، ولماذا جهزهما بهذه الغرائز التى لا تقهر ولا تنفك تضغط عليهما وتدفعهما إلى التقارب والتمازج والاتحاد ؟ لماذا جعل كل ذرة من ذرات الرجل الكامل تنجذب فى غير وعى إلى كل ذرة من ذرات المرأة ، كما تنجذب جزئيات الموجب نحو جزئيات السالب بعامل القهر المركب فى طبيعتها ؟

هل الغريزة الجنسية أحبولة شيطانية

يقولون لنا : لقد أودع الخالق الإنسان هذه الشهوة لتكون وسيلة لتجربته واختباره ، ليتبين الخالق إلى أى حد ينصاع الإنسان إلى الخضوع لشهواته التى هى من صنع الشيطان ، والى حد يتغلب عليها ويقهرها ابتغاء مرضاة الله . وإنها لفكرة سقيمة وعليلة ، بل فكرة تنطوى على جهل فاضح بأخص صفات الخالق الرحيم ، وإساءة ظن بكرمه وعدله وحنانه وبره بما خلق ؛ فأى عدل وأى كرم وأى رحمة فى أن يخلق الرب مخلوقا ضعيفا بما يركبه فى طبعه من شهوة ، ثم يسلط عليه مفاتن الحياة ومغرياتها ومباهجها ، ثم يقول له : إياك ثم إياك من أن تزل أو تسقط ! إياك أن تنظر بعينيك الى هذا الجمال الذى خلقته لتراه ، أو أن تسمع بأذنيك هذا الصوت العذب الذى أبدعته ، أو أن تلمس هذا الجسد الذى فطرته لتستمتع به ، لك الويل كل الويل والعذاب والسعير إن خضعت أيها المخلوق الضعيف لما ركبته فى طبعك من نواميس وغرائز . فهل وراء ذلك سوء ظن بالخالق وتشويه لعظمته وجلاله أن يصوروه ولا مسرة له إلا فى تعذيب مخلوقاته والقسوة عليها والبطش بها ؟

حاشا وكلا أن تكون هذه غاية الرحمن الرحيم ، وتنزه عن أن يوصف بهذا الظلم والاجحاف بالبشر المساكين . وإنما كان خلق الانسان نعمة من النعم ومكرمة من

(١) الحق أن دعاة الرهبانية وعلى رأسهم سانت بول أو بولس الرسول كانوا يرمون فعلا إلى هذه الخاتمة بل ويبشرون بها ويتوقعون من ساعة لأخرى خاتمة الحياة الدنيا وفناءها ، ولكن عشرين قرنا قد انقضت منذ تصور بولس الرسول هذه الفكرة ، ولا تزال الحياة البشرية أبعد ما تكون عن نهايتها وهى آخذة فى النمو والازدهار ؛ فإلى جوار العالم القديم قد اكتشف عالم جديد يغص بالأحياء الأقوياء العاملين المجدين الذين يوشكون أن يقفزوا من هذا الكوكب إلى كوكب آخر ليبدأوا عوالم جديدة ويمدوا فروعا أخرى لشجرة الحياة .

مكارم الرب . خلق الله الانسان وخلق الكون معه وسلطه على هذا الكون؛ لينعم ويستمتع ويشبع ويرتوى ويفرح ويمرح ويهنأ ويسعد، وذلك كله فى مقابل شىء واحد إن تركه الانسان أثم، وهو الشكر لله والاعتراف بالنعمة ، والحمد والثناء على ما أصاب الانسان من منة. وهذا هو جوهر مابين الخالق والمخلوق من علاقة : أن يتذوق المخلوق النعم التى خلقت من أجله وأن يشكر ربه عليها ، وأن يسبح بحمد الخالق الذى سخر له كل هذه الطيبات والخيرات ؛ وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

« كلوا من طيبات ما رزقناكم »

﴿ يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون ﴾(١). ﴿ قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾(٢). فالقرآن ينعى على كل من يحرم على الناس الاستمتاع بمباهج الحياة فى حدود التوسط والاعتدال ، ولا يطلب فى مقابل ذلك إلا الشكر والاعتراف . فليست معصية الخالق فى التمتع بنعم الحياة، وإنما المعصية فى جحود النعمة بالقعود عن شكر الله ، وما العبادات المختلفة التى تفرضها الأديان من صلاة وصوم وحج وتصدق إلا وسيلة مادية لاظهار الشكر لله، والتسبيح بحمده والاعتراف بنعمه .

لا رهبانية فى الإسلام

ولعل من أعظم محاسن الدين الإسلامى، وما يدل على أنه الدين الكامل لسعادة البشر أنه كان صريحا واضحا فى نفى كل فكرة ترمى الى تصوّر الفضيلة فى تعذيب الجسد وحرمانه، وكبت غرائزه وإيلامه؛ وإنما الفضيلة كل الفضيلة فى الاعتدال والاتزان والبعد عن الغلو والتطرف ، فلم يقف الإسلام فى موضوع الزواج عند حد الإباحة ورفع الحرج والكراهة، بل قد دعا اليه وأمر به وحث عليه ورغب فيه، وجعله من آيات الله الكبرى الدالة على رحمته وقدرته ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لايات لقوم يتفكرون ﴾(٣). ودعا الى الزواج فى أكثر من آية بصيغة الأمر والطلب . وقد زاد

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا »

(١) آية ١٧٢ سورة البقرة . (٢) آية ٣٢ سورة الأعراف . (٣) آية ٢١ سورة الروم .

رسول الله صلى الله عليه وسلم بسيرته وسنته وأحاديثه هذا الأمر تأكيدا ووجوبا .

ولما هم أقوام من الصحابة أن يترهبوا كما يفعل المسيحيون، فآلى بعضهم على نفسه أن يظل طول الدهر صائما، وأقسم آخر أن يسهر الليل ماعاش قائما، وأعلن الثالث أنه سيعتزل النساء مابقى حيا ؛ وبلغ الرسول خبرهم اشتد غضبه منهم ونعى عليهم ما فكروا فيه وسموه باسم التقوى والورع وقال لهم قولته الحكيمة الخالدة : "أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم لله لكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى"(١) . وهكذا تبرأ رسول الله من كل من تحدثه نفسه بالترهب واعتزال النساء ؛ فصارت قاعدة أساسية أن "لارهبانية فى الإسلام"(٢) . وكانت وصية الرسول الدائمة لجماعة المسلمين : "تناكحوا تكثروا فإنى أباهى بكم الأمم يوم القيامة"(٣) .

« تناكحوا تكثروا... »

فتنة المرأة وخطرها

يقول المتبتلون والداعون الى الزهد فى المرأة : وماذا تقول فى أنه ليس هناك خطر يهدد سلام الرجل أكثر من افتتانه بالمرأة ، وأن نصف شرور العالم — إن لم يكن أكثر — انما تنشأ بسبب المرأة والتهالك عليها والترامى فى أحضانها ؛ فكم من جرائم ترتكب من أجل الوصول اليها والاستئثار بها ، وكم من رجل يمرق من الدين والفضيلة من أجل الاستمتاع بامرأة ، وقد يتنكر الرجل لآله وذويه وأمه وأبيه من أجل امرأة . وقد تكون المرأة السبب فى تدمير أمة بأسرها ؛ كما لو كانت امرأة غاوية واستولت على لب حاكم أو ملك فدفعته الى ركوب متن الشطط . وهل هناك ريب فى أن الرجل اذا استسلم لغريزته الجنسية وأطلق لها العنان تحول على الفور إلى حيوان وانسلخ من صفوف البشرية ، وأصبح مجرما عنيدا لا حدّ لما قد ينساق إليه من إجرام ، أو لم يقل الرسول الصادق الأمين صلوات الله عليه : "ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء"(٣) . أولا يقول المثل السائر : « فتش عن المرأة » أى ابحث عنها كلما أردت أن تدرك الدافع لأى جريمة من

(١) راجع البخارى . كتاب النكاح .
(٢) مسند الامام أحمد ج ٦ ص ٢٢٦
(٣) الجامع الصغير للسيوطى .

الجرائم يعييك حلها وتفسيرها . فكيف لا يكون من الأحوط للانسان ولدينه وفضيلته أن يهجر النساء وأن يتباعد عنهن ، وأن يكبت غرائزه الجنسية ويتحرر منها ؟ . ونحن لا يسعنا إلا أن نقرر أن ذلك كله حق لا شبهة فيه ، وأن المرأة كانت وما زالت وستبقى الى الأبد أعظم ما قد يدفع الرجل إلى ركوب متن الشطط ؛ والنساء هن الموصوفات فى القرآن بأن كيدهن عظيم . ولكن الذى نفترق فيه عن أصحاب هذا الرأى هو فى أسلوب العلاج والوقاية ؛ فهم يرون العلاج فى الهجر والمقاطعة والاعتزال ، ونحن نقطع بأن هذا الأسلوب ضار ومدمر ومفسد للفرد والجماعة فضلا عن أنه صعب التحقيق إن لم يكن مستحيلا ، وإنما العلاج الشافى هو فى السيطرة على هذه الغريزة وإحسان توجيهها وتصريفها فى نظام واعتدال عن طريق الاتحاد بامرأة واحدة تكون شريكة للانسان وقسيمة حياته ؛ فيفضى لها وتفضى له ، وبذلك يخف ضغط العاطفة الجنسية على أعصابه ، وشرايينه ، ويهدأ بال الرجل ويقر قراره ؛ فيصبح قادرا بعد ذلك على المضى فى الحياة ، كما يمضى الشبعان المرتوى يفكر ويتأمل وينتج ويتطور غير ملتفت لبقية النساء ، على خلاف الجائع الظامئ الذى ينطلق فى الحياة هائجا مسعورا ، يبحث خلف الطعام والماء غير متردد فى السلب والنهب والقتل لإشباع حاجته . إن أدق تشبيه يمكن أن تشبه به الغريزة الجنسية هو المياه الجائحة والفيضانات العالية ، وكيف تنقلب هذه المياه وهى أصل الحياة وينبوعها إلى قوة مدمرة ومخربة إذا حاول محاول أن يتصدى لها وأن يقيم السدود والعقبات فى وجهها ؛ أذ لا يلبث ضغط المياه المستمر أن ينسف الحدود والسدود مكتسحا فى طريقه كل شىء ، جارفا كل معالم الحياة ، التى تعترض تياره وناشرا الخراب والدمار حيث تدفق وسال . فخير ما يفعله الانسان المتحضر لاتقاء شر الفيضانات العالية والطوفان أن يسمح لها بالانطلاق الى مصابها وأن يهيئ لها الطريق ويعبده ، منشئا السدود والخزانات التى لا تحول دون مرور الماء ، ولكن تشرف عليه وتنظمه وتوجهه وتسخره لغايات مثمرة ونافعة لحياة الانسان ورقيه وتطوره . وذلك هو الشأن فى الغريزة الجنسية ؛ فهى تنطلق

تنظيم الغريزة لا محاربتها

الغريزة الجنسية كالفيضانات العالية

فى عروق الانسان وأعصابه وحواسه كالمياه المتدفقة أو كالنيران الجائحة . وقديما كان الانسان الأول يطلق لغريزته العنان فلا يحاول أن ينظمها أو أن يقتصد منها ، ولكن تطور الانسان فى معارج المدنية والحضارة قد هداه إلى نظام الزواج الذى مكنه من السيطرة على غريزته واستغلالها لتطوره وكماله أعظم استغلال .

النظريات الداعية إلى الإباحة

وإذا كان للزواج خصوم ممن يزهدون فى المرأة ويتحامونها ، ويرون الفضيلة كل الفضيلة فى القضاء على غريزتهم الجنسية ؛ فإن للزواج خصوما من ناحية أخرى ربما كانوا أكثر عددا ، يرون السعادة والخير فى الاقلاع عن نظام الزواج حيث يتقيد الرجل الواحد بالمرأة الواحدة ، وهو ما يخالف الطبيعة ويحول دون تحقيق أهدافها فى تكثير النوع ونشر الحياة وامتدادها . ويرى آخرون أن الزواج مظهر من مظاهر الأنانية والملكية التى يجب أن يقضى عليها فى شتى مظاهرها وأشكالها ؛ لتصبح الطيبات كما خلقها الله حقا مشاعا لجميع البشر على السواء . وهناك فى العصور الحديثة من يرون فى الزواج إهدارا لكرامة المرأة وحجرا على حريتها لا يليقان بالمرأة العصرية .

نظرية أفلاطون المعارضة للزواج

وقديما كان أفلاطون يرى أن الزواج قد أدى إلى خلق الأسرة وحبها ، ولابد من القضاء على الأسرة ليتحول الولاء الى الوطن ، وليكون جميع الأفراد ذكورا وإناثا أبناء للوطن ، أسرتهم الكبرى . هذه كلها نظريات لم توضع محل التطبيق فليس يدين بها الكثيرون ، ولكن هناك جما غفيرا فى الحياة يضربون عن الزواج فعلا للاسترسال فى شهواتهم والتنقل من امرأة إلى أخرى ، مستبيحين الحرمات بحثا خلف اللذات والامعان فى الشهوات . وليس هناك ما هو أسهل من دحض هذه النظريات المختلفة الرامية إلى مناهضة الزواج ، وتبيان الخطر الناجم عن الأباحية الفعلية بالنسبة للفرد والجماعة والإنسانية والحضارة .

خطر الإباحية على الأمن والسلام

يقول دعاة الاباحية : أتركوا الانسان يستلهم غرائزه فيتصل بمن شاء أنى شاء وحيث شاء ؛ فبهذا تقضى الطبيعة ، والخير كل الخير فى تحرى سننها ، والقائلون بهذا الرأى يستندون فى زعمهم إلى أن ذلك هو سنة الطبيعة لما يرونه من أحوال الحيوان ، مع أن ذلك التشبيه كاف فى حد ذاته لهدم قولهم ؛ فليس الانسان حيوانا وقد ميزه العقل عن الحيوان ، بل ميزه عن سائر الكائنات بجعله مخلوقا يختلف عنها كل الاختلاف . فالحيوان ليس له إلا غرائزه لتهديه ، ولذلك كانت هذه الغرائز من التوازن والدقة بحيث لا تدفع الحيوان إلا الى كل ما فيه خيره وصلاحه . فالحيوان يعرف بغريزته ما يضره من الطعام وما ينفعه . والحيوان يعرف بغريزته مواضع الخطر فيتقيها ومواضع الرغد فيرتادها ، أما الانسان فقد جهزه الخالق بالعقل الذى لا يهتدى إلى شىء إلا بالتجربة والاختبار ، وجعله حرا إن شاء فعل الشىء وأسرف فى فعله ، و إن شاء امتنع عن عمله ولو كان فى ذلك ما يضره ؛ فلم تعد غريزة الانسان هى التى تسيره ، و إنما عقله الذى صار يهديه و يوجهه ، وقد يحمله عقله على ركوب متن الشطط مما يلغى عمل الغريزة مهما بلغت قوتها ؛ فما من حيوان مثلا يقدم على الانتحار لأن غريزة البقاء تسيطر عليه وعلى جميع حركاته ، و بالرغم من أن الانسان مجهز كالحيوان بهذه الغريزة ومع ذلك فقد يتغلب عقله عليها فاذا به يضع حدا لحياته . لاسبيل إذن للقول بترك الانسان إلى غرائزه أسوة بالحيوان ؛ فقد أصبحت هذه الغرائز محكومة بقوة العقل وسلطانه ، وكلما زاد رقى الانسان كلما زاد سلطانه على غرائزه وأحسن توجيهها لما فيه مصلحته . وقد اكتشف العقل منذ عصور مبكرة أنه لا يستطيع أن يدع الاتصال الجنسى بين الذكور والإناث حرا طليقا كما هو الشأن فى عالم الحيوان ؛ لأن ذلك يجر إلى فقد الأمن والسلام فى المجتمع البشرى . فما من ذكر إلا و يرغب فى الاستحواذ على جميع الإناث والاتصال بهنّ ؛ فليس هناك حد لإشباع نهم الانسان إذا ترك لشهواته العنان ، وليس لذلك من نتيجة إلا العراك المستمر والاصطدام بين الذكور

الحد الفاصل بين الانسان والحيوان

من ناحية وبين الذكور والإناث من ناحية ثانيـة ، وبين بعض الإناث و بعضهن من ناحية ثالثة ، بحيث لا يعود هناك مجال لأى عمل آخر فى الحياة سوى المعارك المستمرة هجوما على النساء أو دفاعا عنهن ؛ وذلك هو الثمرة الطبيعية والمحققة للإباحية وتوخى الاتصالات الجنسية بين الرجل والمرأة . وقد كان هذا هو الحافز الأول للمجتمع الانسانى إلى ابتداع نظام الزواج وتقديسه ؛ فمتى اختار الذكر أنثاه وارتضته بعلا لها فقد وجب على بقية المجتمع أن يحترم هذه الصلة فتصبح المرأة حرما بالنسبة للرجال الآخرين ، وتحتم على الرجل أن يكف عن مطاردة الإناث الأخريات . وذلك هو الزواج فى مبناه ومعناه .

ضرورة الزواج للنسل وتربية الأطفال

على أن ضرورة الزواج بمعنى اختصاص رجل معين بأنثى معينة ، ومساكنة كل منهما للآخر وتعاونهما على الحياة ، تتجلى بصورة أقوى بالنسبة لإنجاب النسل وتنشئته وتربيته ، والتطور به خطوة فى معارج الرقى والكمال كما يقضى بذلك وجدان الانسان . فالبشر على خلاف الحيوان يحتاجون إلى زمن طويل جدا ريثما يكمل نموهم فى أحشاء الأم ، ويحتاجون إلى فترة أطول ريثما يتم فصالهم عن لبن أمهم ، ويحتاجون بعد ذلك الى بضع سنوات أخرى قبل أن يشتد ساعدهم ويقووا على استخدام سيقانهم وأذرعتهم وألسنتهم وعقولهم . وفى عصور المدنية الحديثة يستغرق إعداد الطفل للمزاحمة فى الحياة الراقية بضع عشرة سنة كاملة فى ظل الرعاية والارشاد والتعليم والتربية . أى إن الإنسان على خلاف الحيوان ، يحتاج الى زمن طويل جدا قبل أن يستطيع المضى فى الحياة معتمدا على تجربته . فلو أن هذا العبء ، عبء تربية الطفل والسهر عليه ، ألقى على المرأة بمفردها لانصرف النساء حتما عن القيام بهذه الوظيفة وظيفة الأمومة ؛ لأسباب اقتصادية وصحية واجتماعية . فليس هناك ما يعين المرأة على الاضطلاع بوظيفتها الشاقة إلا أن ترى نفسها فى كنف الرجل يحميها

حاجة الطفل الى بضع سنوات من العناية

ويرعاها إبان عجزها، ويغذوها ويكسوها ويرزقها لتتفرغ هى إلى القيام بواجبها فى رعاية الطفل وحضانته وتربيته .

الاباحية تؤدى الى الإقلال من النسل

فالقول بأن ترك الاتصال الجنسى حرا بعيدا عن الزواج من شأنه أن يحقق غاية الطبيعة فى الإكثار من النسل هو قول مردود؛ لأن المرأة لا تقوم بوظيفتها فى الإنسال إلا متى اطمأنت إلى معونة الرجل واضطلاعه بمسئوليته المشتركة فى إنجاب هذا النسل، ولو أن المرأة كانت كأنثى الحيوان لقلنا إنها ستقوم بوظيفتها قهرا عنها بحكم غرائزها واستعدادها ، ولكن العقل كما قدمنا قد جهز المرأة بالعلم الذى يمكنها من تعطيل وظيفتها ، فصار بقدرتها منذ أقدم العصور أن تتحاشى الحمل كلما أرادت بشتى الوسائل؛ وقد ازدادت هذه الوسائل على مر الزمن فاعلية وإتقانا. فلو تصورنا قيام عهد من الفوضى المطلقة الذى لا يسأل فيه الرجل عن نتيجة اتصاله بالمرأة لعملت النساء جاهدات للتخلص من أجنتهن قبل استقرارها فى أحشائهن . وهذا هو ما يجرى بالفعل فى المجتمعات التى شاعت فيها مبادئ الإباحية من الناحية العملية ، حيث لا يتحرج الرجل من مغازلة أى أنثى ولا تتحرج المرأة من مطارحته الهوى ، على أن ينصرف كل منهما إلى سبيله غير مرتبط بالآخر أى ارتباط .

فى هذه المجتمعات عمدت النساء إلى الإسراف فى استخدام الوسائل المانعة للحمل ، فاذا قدرلها الفشل فى المرحلة الأولى واستقر الجنين فى أحشائها عمدت إلى إجهاضه؛ ووجدت فى العلم خير مساعد لها للوصول إلى هذه النتيجة؛ فاذا فشلت كل محاولاتها لإزهاق حياة الجنين طرحت به فى العراء بمجرد وضعه وميلاده ليلتقطه أحد السابلة أو ليهلك جوعا وبردا . ولا جدال فى أن المرأة التى تفعل ذلك هى امرأة قاسية عاتية ، قد خرجت عن أنوثتها وفطرتها التى تجعل حبها لوليدها محور حياتها ومنتهى آمالها؛ ولكن مجرد شعور المرأة بأنها ستنوء بعبء الطفل وتربيته ، بعد أن مضى الرجل الذى غرسه فيها لا يلوى على شئ ، يخرجها عن طبيعتها ويصيرها إلى هذه المخلوقة التعسة التى تئد وليدها .

شاهد حى من المجتمع الفرنسى

ولدينا فى المجتمع الفرنسى بصفة عامة، والباريسى بصفة خاصة، مثل من أروع الأمثلة على ما قدّمنا ؛ ففى هذه البلاد تفشت فكرة الانصراف عن الزواج واستبدال نظام المخادنة والمعاشرة به، حيث يعاشر الرجل المرأة إلى أجل معلوم يتركها من بعده، وحيث ترك الحبل على الغارب للشبان والآنسات، والأزواج والزوجات، يستمتع كل منهما بالآخر استمتاعا حرا طليقا . كان من أثر ذلك أن تضاعف عدد البغايا المحترفات، حتى أصبح البغاء وصناعة الهوى إحدى الحرف القومية الذائعة الصيت فى باريس، التى أصبحت مقصد الرجال العابثين الذين يطلقون لشهواتهم العنان . وتناقص عدد الرجال والنساء الذين يقدمون على الزواج ، وتأثرت الأسرات القائمة بهذه الروح، فتفككت روابطها وانحلت عراها وضعفت حوافز الإخلاص والوفاء بين الزوجين ؛ فكان من ذلك نتيجة حتمية هى أن بدأ عدد المواليد يتناقص فى فرنسا تناقصا مطردا (١) مخيفا ، بحيث هوت نسبة المواليد لكل عشرة آلاف نسمة من ٣٨٠ إلى ٢٢٠

(١) نشر الكاتب الفرنسى الشهير اديمون ديمولان فى كتابه الخالد «سر تقدّم الإنجليز» الذى ترجمه إلى العربية المرحوم فتحى باشا زغلول إحصائية دقيقة تظهر مدى تناقص المواليد فى فرنسا تناقصا مضطردا . وإليك هذه الإحصائية التى تثبت عدد المواليد بالنسبة لكل عشرة آلاف نسمة :

سنين		مواليد	سنين		مواليد	
من	الى		من	الى		
١٧٧٠	١٧٨٠	٣٨٠	١٨٦١	١٨٦٨	٢٦٤	أى أن نسبة
١٨٠١	١٨١٠	٣٢٥	١٨٦٩	١٨٨٠	٢٤٥	المواليد بين سنة ١٧٧٠
١٨١١	١٨٢٠	٣١٦	١٨٨١	١٨٩٦	٢٢٠	وسنة ١٨٩٦ سقطت
١٨٢١	١٨٣٠	٣٠٩	—	—	—	من ٣٨٠ إلى ٢٢٠
١٨٣١	١٨٤٠	٢٨٩	—	—	—	فى كل عشرة آلاف
١٨٤١	١٨٥٠	٢٧٤	—	—	—	نسمة وهى أكثر
١٨٥١	١٨٦٠	٢٦٧	—	—	—	من الثلث .

فى مدى قرن من الزمان . وبدأ الجنس الفرنسى يفقد بالتدريج تفوقه من حيث الكم والنوع . وليست الهزيمة الساحقة التى عانتها فرنسا فى هذه الحرب العالمية الأخيرة إلا آية التدهور والانحلال الذى أصاب هذه الأمة المنكودة ؛ كما اعترف بذلك رئيس الدولة الفرنسية السابق المارشال « بيتان » عقب سقوط فرنسا على الفور ، ونادى بأنه لا سبيل لإنهاض فرنسا من كبوتها وإقالة عثرتها إلا باقامة صرح الأسرة من جديد ، وتقوية أواصرها وتقديس تقاليدها وأنظمتها ، واستبدلت بأقانيم فرنسا الثلاثة : الحرية والإخاء والمساواة أقانيم جديدة أولها وعلى رأسها الأسرة .

دعوة المارشال بيتان الى اقامة صرح الأسرة

فالأسرة التى يؤلفها الزواج هى الأسلوب الوحيد لتشجيع المرأة على النسل ، وليست الإباحية والتحلل من القيود .

الدولة بدل الأسرة

ولننتقل الآن إلى مناقشة النظرية الثانية التى تريد أن تحل الدولة محل الأسرة ، والتى قال بها أفلاطون فى القديم وهى : أن حب الوطن يجب أن يحل محل حب الأسرة ؛ وذلك لا يتم الا بأن تفصل المرأة عن الرجل بمجرد تمام التلقيح ، وأن تتكفل الدولة برعاية المرأة وحمايتها ريثما تضع طفلها ، ثم تنزع منها طفلها لتقوم بتربيته وإعداده إعدادا صالحا ؛ لتجعل منه مواطنا قويا نافعا لا يعرف له أسرة سوى الوطن الذى يجب أن يحل محل الأسرة . وقد فات أفلاطون ، وهو ذلك العبقرى الفذ ، أن هذه الدولة التى ينصح بإحلالها محل الأسرة ، ليست إلا أسرة كبيرة تتألف من هذا العديد من الأسرات الصغيرة ، التى تضخمت وتفرعت وتشابكت ؛ فكانت عشيرة فقبيلة فأمة فدولة ، وأن معنى الدولة ما كان ليوجد أصلا لو لم يسبقه قيام الأسرة .

فساد نظرية أفلاطون

وليست الوطنية التى يدعو إليها أفلاطون ويريد أن يحطم الأسرة لتعزيز جانبها ؛ ليست هذه الوطنية إلا الامتداد الطبيعى لحب الانسان الغريزى لأسرته وعشيرته ؛ فلو تصورنا انهيار هذا الحب فى نفس أى فرد من الأفراد ، لما استطعنا بعد ذلك أن نتصور كيف يكون للوطن معنى ، فضلا عن أن يكون للدولة وجود .

إن المجتمعات فى الواقع ليست إلا جسما حيا لأنها تتألف من أحياء ، ولذلك

فإن لها كل خصائص الجسم الحى ، ولو تأملنا الجسم الحى لوجدناه يتألف من أنسجة ، وهذه الأنسجة تتألف بدورها من مجموع من الخلايا ، كل خلية منها هى كائن حى مستقل له كل مشخصات الكائن الحى . والأسرة — وليس الفرد — هى خلية المجتمع الأولى ونواته ، وتتوقف قوة المجتمع كما تتوقف صحة البدن على سلامة الخلايا وقوة نموها ؛ فحيث تقوى الأسرة يقوى المجتمع بالتالى ، وتنبثق من قوته فكرة الدولة بمعنى التضامن الاجتماعى . فاقتراح أفلاطون أن تحل الدولة محل الأسرة هو بمثابة إغفال المقدمة للوصول إلى النتيجة ، مع أن هذه النتيجة لا يمكن أن توجد أصلا إلا بعد إقرار المقدمة . ومن سوء الحظ ، وربما كان من حسن الحظ ، أنه لم يوجد فى أى عصر من العصور أقوام بلغ بهم الاضطراب والهوس إلى حد تطبيق هذه النظرية لنرى كيف يمكن أن تقوم دولة حيث لا أسر ، ولنرى كيف تستطيع هذه الدولة على فرض قيامها أن تعوض على الطفل الرضيع حنان أمه التى تغذيه بحنانها وحبها قبل أن تغذيه بلبنها ؛ ولنرى كيف يمكن أن يشب هذا القطيع من الأطفال المحروم منذ طفولته من كل عطف بشرى ورعاية أبوية ، وكيف يرقى ويتطور .

بل ليت هذه التجربة وضعت محل التنفيذ ، لنرى كيف يتحقق معها استمرار الرجال والنساء على الدأب والسعى والكد والاجتهاد ، بعد أن لم تعد لهم أسرة يهتمون بكفل قوتها وحمايتها ، والعمل كل ما من شأنه إعلاء مكانتها .

الشيوعية والأسرة

لقد كان يظن خطأ أن الشيوعية فى روسيا قد هدمت الأسرة من أساسها ، وأن الدولة هى التى تتولى تربية الأطفال ؛ ولكن سرعان ما تبين أن ذلك لم يكن كله إلا وهما ودعاية ، وأن المجتمع الروسى الشيوعى كأى مجتمع آخر يحرص على الأسرة أشد الحرص ، بل لعل الأسرة الروسية هى من أقوى الأسر الأوربية ترابطا واتحادا حتى فى ظل الشيوعية ، ولولا ذلك لما نجحت روسيا هذا النجاح العجيب فى هذه الحرب .

الحق أن الأسرة ونظامها وحب الزوجة والولد ، هو الذى يحفز الإنسان أكثر ما يحفزه إلى الكد والسعى والاكثار من التحصيل والطموح للنجاح والتفوق

والنصر ؛ لكى يوفر الإنسان لشريكة حياته وأولاده أكبر ما يستطيع من الرغد والهناء ، لا إبان حياته فحسب بل وبعد وفاته أيضا . وليس هناك ما يولد فضيلة الإيثار والتضحية والعمل من أجل الآخرين أكثر من أن يكون الرجل والمرأة أبا وأما . وليس فى الخليقة كلها ما هو أروع أو أجل من علاقة الأم بطفلها .

نظرية التسوية المطلقة بين الرجل والمرأة فى الوظيفة

على أن العصور الحديثة وما صحبها من انقلاب ميكانيكى واقتصادى أدّى إلى تطور فى حياة الأفراد ومعيشتهم ، بحيث صارت الحياة أكثر تكاليف من ناحية ، وصار العمل أقل مشقة من ناحية أخرى . كل ذلك قد هيأ المجال لخلق اعتراضات جديدة على نظام الزواج والأسرة من وجهة نظر المرأة المتحررة ، ومن يدّعون الغيرة على حرية النساء وكرامتهن ؛ فهم يقولون إن خضوع المرأة لنظام الزوجية وما يجره ذلك من التزامات تربطها بخدمة زوجها و بيتها والاشتغال بتربية أطفالها فيه عدوان على حرية المرأة وكرامتها ، وحرمان لها من المساهمة فى جلائل الأعمال التى يقوم بها الرجل والتى من حق المرأة أن تقوم بها ، و يزعمون أن القول بأن مهمة المرأة الرئيسية فى الحياة هى أن تكون زوجة وأمّا ، وأن تكرس حياتها لخدمة زوجها وأولادها . يزعمون أن هذه الأقوال ليست إلا أثرا من آثار العصور الغابرة التى أخضع الرجل المرأة فيها لحكمه وسلطانه جاعلا منها شبه رقيق . و يذهب هذا النفر إلى حدّ القول أن هـذا الفارق الملحوظ بين جسمى المرأة والرجل وعقلى الرجل والمرأة ليس إلا نتيجة لهذه العبودية التى طال عليها الأمد . ولو أطلقت المرأة من عقالها وتحررت من سلطان الرجل ، ووقفت و إياه على قدم المساواة مزاحمة إياه فى شتى ميادين الحياة ومجالى نشاطها لزالت هذه الفوارق من زمن قليـل ، فيصبح بقدرة المرأة أن تقوم بكل ما يقوم به الرجل من أعمال ، حتى ما كان منها يستدعى قوة جسدية بحتة أو قوة تفكير مطلق . فعلى المرأة الحديثة ، والحالة هذه أن تطلق نهائيا أفكار الزواج والأسرة ، وكل ما يجعلها خاضعة للرجل أو تابعة له أو متخصصة فى خدمته ، وأن تحقق كرامتها

الفارق الملحوظ بين الرجل والمرأة ليس إلا أثرا من آثار العبودية

وشخصيتها ومجدها بمزاولة كل ما يزاوله الرجل من عمل فى الطب والمحاماة والهندسة والفلك والزراعة والصناعة والتجارة والسياسة والقضاء والحكم بل والحرب أيضا ، وأن تزاحم الرجل فى كل ما يدعيه لنفسه من أعمال .

ذلك القول لا يعدو أن يكون ضربا من ضروب التخبط والاضطراب الفكرى والاجتماعى ، الذى يقع فيه البشر فى إبان الانقلابات الكبرى الواسعة النطاق . ولا مشاحة فى أن اكتشاف قوتى البخار والكهرباء وما خلقاه من آلات قد أحدثا فى العالم انقلابا لا عهد به للبشر من قبل ؛ فنبتت مثل هذه الآراء المتطرفة التى تسخر من نواميس الطبيعة وتزدريها ولا تعبأ بها ، وتنكر البديهيات المحسة وتجعل من المرأة رجلا ولو كان ذلك ضد مصلحة البشر والعمران ، ولو كان ذلك مستحيلا ما بقيت الأرض أرضا والسماء سماء .

لا بد للحياة من سالب وموجب أو ذكورة وأنوثة

إن كل ما فى هذا الكون من مظاهر الحياة والكينونة إنما يقوم على عنصرى الذكورة والأنوثة ، أو بعبارة أعم على الإيجاب والسلب . ومن هذا الازدواج تنبثق الحياة ، بل وينبثق كل ما فى الوجود من عوالم وكائنات ... ففى عالم الحيوان مثل ما فى عالم النبات ، نرى هذا الاختلاف فى النوع ابتداء من الخلية الواحدة ، وهذه الميكروبات التى يقف الملايين منها على رأس الدبوس ، وانتهاء بأرقى الحيوانات وأكملها وأقواها ، بل إن العلم الحديث قد أثبت لنا أن الجمادات نفسها ليست إلا حشدا من الذرات المختلفة ، وأن كل ذرة من هذه الذرات تتألف من عديد من الكهارب السالبة والموجبة ، وأن نوع الجماد يختلف بمقدار اختلاف النسب بين هذه الكهارب السالبة والموجبة ؛ فإذا تركنا دائرة المحسات إلى عالم المعنويات وجدنا أنه لا يوجد سوى معنى واحد لا يقبل الازدواج والاختلاف فى الطبيعة ، وذلك المعنى هو الموصوف به خالق الوجود الاولى القديم ؛ فذلك لا يمكن إلا أن يكون واحدا لأنه الأصل الأول ، وأما ما خلا هذا الواحد الأحد فان الذهن لا يستطيع أن يتصور أى معنى من المعانى إلا على أساس الشىء وعكسه أو الايجاب والسلب ، فلو اتحدت المعانى المتعارضة وصارت معنى واحدا لخرجت عن دائرة المفهوم ، ولو تحولت الكهرباء

خالق الكون هو وحده الفرد الصمد

إلى نوع واحد من الايجاب والسلب لفقدت فاعليتها . ولو صارت الذكور إناثا كلها أو صارت الإناث ذكورا كلهن لما كانت الحياة . ونحسب أن هذه بديهية لا تحتاج إلى كثير شرح أو إسهاب ؛ فما يرى عليه النساء من اختلاف عن الرجال فى الطبع والفكر والجسم ليس ثمرة لاستعباد الرجل للمرأة كما يزعم الزاعمون ، وإنما هى الخلافات الطبيعية التى خصت بها الطبيعة كلا من الرجل والمرأة ليقوم كل منهما بوظيفته . وليس أدل على ذلك من أن هذه الخلافات لا تقف عند الصور والأعضاء الظاهرة ، بل تشمل فيما تشمل التركيب الفسيولوجى الداخلى للمرأة ، حيث قد جهزتها الطبيعة بما يعدّها لنمو الجنين فى أحشائها وانفصاله عنها بعد المدة المعينة ، ثم تغذيته بواسطة هذا اللبن الذى تفرزه غدد معينة اختصت بها المرأة دون الرجل .

استعداد المرأة المادى والمعنوى للأمومة

لم تكن هذه الأجهزة المادية التى زودت بها الطبيعة المرأة هى كل ما ميزتها به الطبيعة عن الرجل ، بل لقد أعدّتها الإعداد النفسى الضرورى للاضطلاع بوظيفتها ؛ فجعلتها قوية العاطفة مرهفة الغرائز ليحملها ذلك على التمسك بطفلها وحضانته ورعايته ، ولولا ذلك لما احتملت امرأة واحدة كل هذه المعاناة والآلام فى سبيل صيرورتها أما ، ولما كانت طبيعة الأمومة والحرص على الجنين وهو لا يزال فى الأحشاء ، ثم الحرص بعد ذلك عليه طفلا يستوجب أن تنأى المرأة بنفسها عن مواطن النزاع والمهالك والمخاطر التى تعرضها وجنينها للموت ؛ فقد ألقت الطبيعة هذه المهمة على عاتق الرجل فزودته بما يجعله قادرا على حمايتها والدفاع عنها أثناء سهرها على طفلها ، وليمدها أثناء عجزها بما يقيم أودها ويكفى لتغذيتها . وحسب الإنسان أن يلقى نظرة على زوج من الحمام أثناء اشتغالها بتفريخ نسلهما ليرى كيف ترقد الأنثى على البيض لا تبرحه ، بينما يقف الذكر على رأس عشهما يحميها ويرعاها ويصد عنها عادية المغيرين . وليس ذلك إلا مثالا لهذا التقسيم الطبيعى لمهمة كل من الذكر والأنثى فى الحياة ؛ فالأنثى مهمتها الايجاد والتكثير ، والذكر مهمته الحماية والرعاية ، ومن هنا فقد اختصته الطبيعة بقوة العضلات والقدرة على القتال بل والميل إليه ، وبذلك أصبح أكثر قدرة على العمل والانتاج والسعى والنشاط وأصبر على مشاق الحياة ،

كما كانت المرأة من ناحيتها أصبر منه على ما يتطلبه إيجاد الحياة . فتقسيم العمل بين الرجل والمرأة مسألة قد قررتها الطبيعة ولا سبيل للفكاك منها ، بل إن كل محاولة لإفساد هذا الناموس لا يمكن أن يعود إلا بالضرر على القائمين به ولا ينتج للمجتمع الفائدة المرجوة . فاذا كانت الظروف والأحوال تضطر المرأة فى بعض الأحيان للاشتغال بحرفة من الحرف أو مهنة من المهن لاكتساب رزقها فى بعض الأحوال ولعدم وجود الرجال فى أحوال أخرى كحالات الحرب (وهو ما لا نمانع فيه بأية حال من الأحوال) فان ذلك يجب أن ينتهى بمجرد زوال الضرورة الملجئة إليه ؛ كأن يتقدم للمرأة الزوج الصالح الذى يعولها ويتولى الانفاق عليها ، أو كأن يعود الرجال من الحرب ليستأنفوا أعمالهم ؛ فيتعين فى هذه الأحوال على المرأة أن تعود لمزاولة وظيفتها الأساسية التى هى أشرف ما فى الحياة من وظائف وأعلاها قدرا ، وأن تنصرف عن كل شاغل يمكن أن يشغلها عن رعاية بيتها وزوجها وأولادها ، وهو ما خلقت من أجله ، وما يتوقف عليه سعادة البشر وعمارة الكون وازدهار الحياة .

هل فى الزواج والأمومة غض من شأن المرأة ؟

أما القول بأن اهتمام المرأة ببيتها ورعاية زوجها وأولادها فيه ما يؤثر فى كرامتها ويحط من شأنها ويقلل من قدرها ؛ فهو قلب للحقائق المشاهدة الملموسة ومغالطة صريحة ، فليس هناك كالزواج والأمومة وحياة الأسرة من حقق ويحقق للمرأة سلطانها الأكمل فضلا عن كرامتها وحرمتها . فالبنت إذا تزوجت شعرت على الفور بازدياد فى كرامتها ، فاذا رزقت أول أطفالها تضاعفت هذه الكرامة لمجرد صيرورتها أما .

ذلك أن الزوجة والأم شريكة لزوجها وولدها فى كرامتهما ، فإذا كان زوجها أو ابنها زعيما فقد صارت لها الزعامة ، وإذا أصبح زوجها أو ابنها أميرا فقد تقلدت الإمارة ، ولو تزوجت ملكا لكللت بتاج الملك ، ولو صار ابنها امبراطورا لصارت امبراطورة . فالمرأة بزواجها وأمومتها قد ترتفع أحيانا إلى أعلى عليين ، بل إلى ما لا يساميها فيه أعظم الرجال . ومن مِن العالمين لا يكرم مريم من أجل ابنها المسيح

مريم وآمنة وعلو قدرهما

عليه السلام، أو يكرم آمنة من أجل محمد عليه الصلاة والسلام؟ . وقل مثل ذلك عن تلك الأمهات اللواتى أنجبن الرسل والأنبياء والعلماء والقادة المصلحين والزعماء؛ فكلهن كريمات مقدسات ممجدات بما خلفن من أبناء . وما من عظيم مهما سما قدره إلا وهو ابن امرأة، وهو بحكم بنوته لها مجبول ومأمور بطاعتها وحبها ، وقد يكون ممن ترتجف الملوك من حضرتهم وتفزع الناس من هيبتهم .

نابليون وستالين

فهذا «نابليون» ذلك البطل الفذ بين الأبطال كان ينحنى على يد والدته ليقبلها، وهو الذى كانت الملوك والقياصرة تنحنى فى حضرته، وكانت أمه لاتخشاه ولاتهابه، بل ظلت تنظر إليه فى أمجد أيامه كما كانت تنظر إليه وهو طفل صغير لا غنى له عن عطفها و إرشادها وتأنيبها فى بعض الأحيان .

وهذا رجل مثل «ستالين» زعيم روسيا السوفيتية، تروى الجرائد عنه فيما تروى أن أمه لا تزال على قيد الحياة، و ربما قبضت على أذن ابنها وعركتها غير عابئة بما صار إليه من حول وطول .

خديجة

ومن منا نحن معاشر المسلمين لا يذكر بالإجلال والإعظام «خديجة» الصديقة زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكيف صيرها زواجها بالرسول كريمة فوق الكرماء، وقد أخذت طريقها إلى المجد والخلود لمشاركتها الرسول فى حياته وجهاده، وكيف ظل الرسول بعد موتها أمينا على ذكراها ، ممجدا لها ومشيدا بحمدها، ولاهجا بالثناء عليها[1] .

فالزواج والأمومة والأسرة لم تكن فى يوم من الأيام حجر عثرة بين المرأة و بين بلوغ أعلى مراتب المجد والكرامة والشهرة والخلود، بل الذى لا شك فيه أن كثيرات

---

(١) فى الاصابة لابن حجر : « عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها ؛ فذكرها يوما من الأيام، فأخذتنى الغيرة فقلت : هل كانت إلا عجوزا قد أبدلك الله خيرا منها ! فغضب ثم قال : " لا والله ما أبدلنى الله خيرا منها آمنت إذ كفر الناس وصدقتنى إذ كذبنى الناس و واستنى بمالها إذ حرمنى الناس ورزقنى منها الله الولد دون غيرها من النساء " . قالت عائشة فقلت فى نفسى : لا أذكرها بعدها بسيئة أبدا » .

من النساء ما كن ليصلن إلى ما وصلن إليه من درجة رفيعة إلا من طريق الزواج والأمومة . وليس بمنقص من قدر المرأة أن تكون كرامتها ومجدها وشهرتها مستمدة بالتبع من كرامة زوجها أو ابنها ومجدهما، إذ أن لها نصيبا إيجابيا من ذلك المجد؛ فما من رجل متزوج يمكن أن يرقى إلا ولزوجته نصيب فعال فيما حققه، وما من رجل يمكن أن يفوز أو ينجح إلا ولأمه النصيب الأكبر فيما أدركه ، فهو ليس إلا بضعة منها . والفرع لا يمكن أن يكون أكرم من الأصل ولا يمكن أن يحقق لنفسه شيئا من الحياة فضلا عن الرقى والتطور إلا عن سبيل ما يستمده من الأصل، ولذلك فإن المطالع لسير العظماء دائما يلفت نظره بقوة اهتمام هؤلاء العظماء فى إظهار فضل زوجاتهم عليهم، حتى ليغالى بعضهم فيقول : إنه مدين بكل شىء لزوجته أو لما ورثه عن أمه إن لم يكن متزوجا . ومن ناحية أخرى تنطق الشواهد كلها بأنه على قدر رقى المرأة وحظها من العلم والثقافة يكون مبلغ حرصها على نظام الزواج والأسرة ، وليس أدل على ذلك فى عصرنا الحديث من نساء أو ربا الشمالية، وعلى الأخص بلاد الانجليز ، حيث صار للمرأة حق الانتخاب والجلوس فى البرلمان وأصبحت المرأة تساهم فى كل شأن من شئون الحياة، و بلغت من الرقى والثقافة ما لا تضارعها فيه أية نساء أخريات ؛ ومع ذلك فإن المرأة الانجليزية بصفة عامة من أشد نساء أور با حرصا على الزواج والأمومة، بحيث يمكن اعتبار الأسرة الانجليزية والبيت الانجليزى هو سر قوة انجلترا ونجاحها الفائق فى الهيمنة على شئون العالم وتأليف هذه الامبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس ، وهو السر فى ازدياد عدد سكانها المتواصل مما مكنها من الانتشار فى الأرض كل هذا الانتشار العجيب الذى يجعل العنصر الانجليزى هو العنصر الغالب فى أمريكا الشمالية، وهو العنصر السائد فى قارة استراليا . بينا رأينا الحال فى فرنسا على عكس ذلك ؛ فالمواليد فى تناقص مستمر، والأسرة مفككة منحلة العرى . وليس ذلك إلا لأن المرأة الفرنسية لم تحقق من النضوج والرقى مثل ماحققته المرأة الانجليزية . وهكذا نرى القاعدة تطرد فى أنه كلما ارتقت المرأة ونضجت ازداد إحساسها بواجبها الطبيعى فى أن تكون زوجة وأما . وأمامنا مثل رائع فى العصر

تأثر العظماء دائما بزوجاتهم

مدام كورى

الحديث على هذه الحقيقة وهو خاص بشخصية «مدام كورى»، هذه الفتاة البولندية التى نزحت من بلادها الى باريس فى طلب العلم؛ فلما خطبها المسيو «كورى» أجابت طلبه على الفور، ثم بدأت بعد ذلك تشق طريقها إلى المجد العلمى والخلود بالبحث خلف عنصر الراديوم؛ ومع ذلك فان هذه المرأة الفذة العبقرية لم تنس فى يوم من الأيام أنها امرأة قبل كل شىء وأنها زوجة وأم، فلم تستنكف أن تدع معادلاتها الرياضية وتجاربها العلمية جانبا لتتدرب على طهى صنف أو صنفين من الطعام، ولم تعمد هـذه المرأة الغارقة فى التجارب العلمية إلى ما تعمد إليه النساء الفارغات اللاهيات من تفادى الحمـل أو إجهاض الجنين بعد حمله، وهى لو فعلت لوجدت فى نبوغها وشـذوذ عبقريتها ألف شفيع لها أمام المجتمع، ولكنها كامرأة عظيمة أرادت أن تكون ناضجة الحواس والغرائز، وأن تكون أمينة على وظيفتها الأولى كأم؛ فرزقت من زوجها ببضعة أطفال، ولما خاب حملها فى أحد المرات حزنت لذلك أشـد الحزن وتألمت غاية الألم؛ كما ذكرت ذلك ابنتهـا «ايف كورى» فى كتابها (التلميذة الخالدة)[1]. وكانت عنايتها بتربيـة بناتها بالغة الحـد، حتى إن إحداهن قد نالت جائزة «نوبل» فى المباحث العلمية، وثانيتهما أديبة وصحفية عالمية. وعند ما قتل مسيو «كورى» فى إحدى الحوادث بكته «مدام كورى» بالدمع الهتون، وتصدع قلبها وعاشت بقية حياتها حزينـة من أجله وفيـة لذكراه. وهكذا كانت هـذه المرأة الخالدة زوجة كاملة وأما كاملة. ولعل هـذه الناحية من حياتها هى ما يروعنا بالأكثر ونحن نطالع سيرة حياتها، وكيف أن اشتغالها بالعلم الذى انتهى باكتشافها الخطير الذى قلب قواعد العـلم رأسا على عقب لم يقلل مقـدار ذرة من طبيعة الأنوثة فى نفسها، ولم يحد بها قيد شعرة عن واجبها الأول كامرأة كاملة.

---

(١) ترجم الأستاذ أحمد الصاوى محمد هذا الكتاب إلى اللغة العربية وهو من أحسن ما يقرأ.

الخلاصـــة

والخلاصة أنه من أية ناحيـة جئنا نظام الزواج وجدناه هو الأصلح بالنسبة للفرد ، رجلا كان أو امرأة ، من حيث توفير أمنه وسلامته ، وتحقيق أكبر قسط من نجاحه فى الحياة وتفوقه ماديا ومعنويا . وهو الأصلح بالنسبة للجماعة من حيث دعم أركان الحضارة والعمران ، بتخصيص كل عضو من أعضاء المجتمع لما خلق من أجـــله .

ومن هنا كان الزواج هو أقدم نظام عرفه البشر وأحاطوه بالقداسة إلى اليوم ، بحيث تبدلت النظم من حوله ولم يتبدل ، وانقلبت الأحوال رأسا على عقب وظل الزواج حيث كان حجر الزاوية فى بناء المجتمع واللبنة الأولى التى تتألف منها العشيرة فالقبيلة فالأمة فالدولة والتى يتوقف على مدى قوتها وسلامتها سلامة المجتمع كله .

وليس أدل على أن الزواج نظام فطرى وغريزى فى البشر من أنه سنة الزنوج فى غابات خط الاستواء ، كما هو سنة الاجتماع لدى الانجلوسكسون والأمريكان ، وهو النظام المتبع بين عرب البادية ، وهو القانون المحترم لدى سكان الدائرة القطبية ؛ بل إن حالنا اليوم فى موضوع الزواج كحال أجدادنا منذ أربعة آلاف سنة لا فى مصر فقط بل وفى أشور و بابل والهنـد والصين و جزر المحيط . فكل خروج على هـذا النظام هو بمثابة خروج على سـنة الطبيعة نفسها ، سـواء أكان ذلك عن طريق الاباحة المطلقة أم الكبت والحرمان بحجة التدين ، أم كان ذلك لانصراف النساء عن الزواج واشتغالهن بالأعمال العامة ؛ فكل ذلك من شأنه أن يضر بنجاح المجتمع ، وأن يعرقل نموه ويخل بدعائمه و يقوض بنيانه .

الفصل الثانى

المـــرأة وحقـــوقهـا

استـــدراك

على أننا وقد فرغنا من تقرير هذه القاعدة الأساسية التى تجعل الزواج فالأمومة هى الهدف الرئيسى للمرأة فى الحياة، وأن الزواج بالنسبة للرجل هو واجبـه الأول وواجبه المقدس ؛ فإنه يتعين علينا أن ندحض من ناحيـة أخرى بعض الشبهات التى ولدتها هذه القاعدة العامة، فأضرت بمكانة النساء وحقوقهنّ فى البلاد الشرقية وجعلتهنّ متخلفات عن الرجال فى كل نواحى الحياة ، بدعوى صـيانة الأخلاق والفضيلة والنزول عند أحكام الدين . بل بلغ الجهل بأقوام الى حد إهدار آدميتها كما سنرى ؛ فليس يعنى أن تكون المرأة زوجا المساس باعتبارها ومكانتها بالنسبة للرجل الذى تسـاويه مساواة مطلقة ، وليس يعنى ذلك حرمانها من أى حق من الحقوق التى يتمتع بها الرجل ، سواء كانت هـذه الحقوق دينية أو مدنية أو سياسية، أو أن يحال بينها وبين أن تتعلم ما شاءت أن تتعلمه من العلم بمختلف فروعه، وأن تستزيد منه حسبما تتسع قدرتها لذلك، أو أن ينكر عليها منكر اشتغالها بأى عمل من الأعمال الشريفة التى يشتغل بهـا الرجال متى اضطرتها الظروف الخاصـة أو العامة لذلك ، أو كانت على جانب من النبوغ والقدرة الغير عادية بحيث يتحتم على المجتمع الاستفادة من أهليتها واستعدادها .

وأخيرا ليس معنى اختصاص المرأة بوظيفة الزوجيـة والأمومة أن تتحوّل الى سجينـة فى عقر دارها وأن يحـال بينها و بين نور الشمس ومباهج الحياة ؛ فلا تسـير فى الطريق إلا من خلف ستار، ولا يحق لها أن تساهم فى كل ما يساهم فيه الرجال فى مجالات النشاط المشروعة التى تعود على الفرد والمجموع بالنفع والخير العميم .

وتوضيح هـذه المسائل وشرحها يستدعى منا أن نخوض فى بحث مستفيض بالنسبة لحقوق المرأة من الناحية الاجتماعية والقانونية والدينية والطبيعية والمنطقية. ولنا من خطورة هـذا الموضوع بالنسبة لحياتنا الاجتماعية والعمرانية خير شفيع لهـذا الاسهاب .

حق المرأة المطلق فى مساواة الرجل من حيث المكانة والاعتبار

إن حق المـرأة فى المساواة المطلقة مع الرجل من حيث المكانة الأدبية لكل منهما فى الحياة هى بهديهية من البديهيات، لم تكن محل نزاع فى المجتمعات القديمة أبدا بل والمجتمعات السابقة على التاريخ . ولعل الأنوثة كانت فى الزمن القديم تحظى بالنصيب الأكبر من تقديس البشر وإكرامهم ؛ فلم تكن عقلية القدماء تتخيل شيئا مقدسا إلا على صورة الأنوثة ، وهم يرون الأم سبيل الحياة؛ ولذلك كانت الأنوثة هى الغالبـة فى معبوداتهم . فالسماء عندهم لا يمكن إلا أن تكون امرأة والأرض امرأة، والكون كله لا يمكن إلا أن يكون وليد أم وهكذا. ولا يزال أثر ذلك كله يتجلى فى مختلف اللغات والاصطلاحات البيانية؛ فكل مظاهر الطبيعة مؤنثة، واذا تحدثنا عن الأرض قلنا أمنا الأرض . ثم بدأ العقل البشرى يدرك أن الأنوثة وحدها لا يمكن أن تكون مصدر الحياة، بل لا بد من الذكورة الى جوارها؛ فبدأت العقائد تمثل الآلهة على شكل أسرة من الزوج وزوجته؛ كايزيس وأوزوريس وابنهما حوريس .

تأنيث القوى الطبيعية كلها

وغنىّ عن البيان أن هذه كلها آراء خاطئة ، ولكنى انما أثبتها لدلالتها على نظرة العقل البشرى للأنوثة وتكريمه اياها حتى رفعها الى مرتبة الألوهية . وقد كان مركز المرأة فى القديم مقررا على أساس المساواة التامة للرجل؛ كما ينبئنا بذلك تاريخ مصر القديم حيث كان للمرأة كل الحقوق التى للرجل بما فى ذلك اعتلاء أريكة الملك فسجل لنا التاريخ أسماء خنت كاوس (نيتوكريس) وحتشبسوت وقد كانتا من بين الأسماء الممتازة فى حياة مصر القديمة . وقد كانت المرأة تشاطر زوجها دائما نصيبه فى الحياة و بعد الممات، وترى صورها على الآثار الى جوار صور الرجل فى شتى المناسبات

نيتوكريس وحتشبسوت

الخاصة والعامة ، وقد بلغ هذا الاشتراك ذروته فى عهد أخناتون ذلك الملك الثائر الداعى الى دين التوحيد ، ففى عهد ذلك الملك نرى زوجته تجاوره وتصحبه فى كل شئونه ، وتقوم بدور الساعد الأيمن فى كفاحه من أجل الدين الجديد وهكذا .

وغير خاف أن المجتمع المصرى كان فى هذه الفترة فى أرفع درجاته من حيث الرقى والحضارة والمجد . وهذا الذى كان يجرى فى مصر القديمة كان يجرى مثله فى سائر المجتمعات الزاهرة فى هذه العصور ، فلم يحدث أبدا أن امتهنت المرأة أو احتقرت أو غض من شأنها فى إبان نهضات الإغريق والرومان والهند والصين ، بل والعرب فى عهدهم القديم حيث يسجل أسماء ملكات شهيرات حكمن فى شبه جزيرة العرب كبلقيس والزباء . وانما عدت العوادى على المرأة دائما فى عصور التدهور والانحلال ، حيث تنطفئ مصابيح العمران ، ويسود الجهل محل العلم ، والظلم والتعسف مكان العدل والانصاف ، والأوهام والخرافات على انقاض التقاليد وتعاليم الدين الصالح . فمن ذلك ماحدث فى أوربا إبان العصور الوسطى المسيحية حيث غشى الظلام عقول الناس ، وعشش الجهل والتعصب بين جدران الكنائس ؛ ففى ذلك الوقت عانت المرأة أسوأ ما عانت فى أوربا ، فقد بلغ الأمر الى حد التشكك عما اذا كان لها روح كالرجل وعما اذا كانت تساويه فى درجة الآدمية وعلى كل حال فقد اعتبرت المرأة فى هذه الفترة من التاريخ أنها شر لا بد منه وضرر لا مندوحة عنه وأنها أحبولة الشيطان والباب الذى ينفذ منه الى فتنة الرجال ولذلك فليس لها مكان فى ملكوت السماء وأن مهمتها يجب أن تكون قاصرة على خدمة البيت وأن تربط به ويكم فاها ككلب عقور . وبلغ الأمر بالكنيسة الأرثدوكسية الى حد تحريم ممارسة الشعائر الدينيه على المرأة إلا التافه منها الذى لا يكاد يذكر . وقد كان ذلك آية لما وصل اليه الانحطاط العقلى والتعصب والجهل فى هذه العصور التى كانت تدعى الانتساب الى المسيحية ، مع أن المسيحية فى تصورهم نبعت من المرأة واعتمدت على المرأة فى إثبات أكبر معجزاتها فالمسيح ليس إلا ابن امرأة وهى مريم العذراء ولعله من التناقض العجيب أن يؤله المسيحيون عيسى بن مريم

بلقيس والزباء

وأن يكون إلههم ابنا لامرأة، ومع ذلك ينظرون الى المرأة هذه النظرة الحقيرة؛ بل أن ألوهية المسيح كما يزعمها المسيحيون لاتثبت عندهم إلا بشهادة امرأتين، فان معجزة المسيح الكبرى فى ظن المسيحيين التى رتبوا عليها الاعتقاد بألوهيته هى قيامته من الموت فى اليوم الثالث ونفضه عن نفسه غبار الموت، ثم صعوده الى السماء بعد أن خاطب المرأتين الوحيدتين اللتين كانتا الى جوار القبر، وطلب منهما إبلاغ نبأ قيامته الى تلامذته ومريديه؛ فقامت المرأتان بإبلاغ الرسالة الى تلاميذه الاحد عشر فصدقوا بها وآمنوا بفحواها إيمانا مطلقا، ونادوا بالمسيح إلها منذذلك اليوم. وهاتان المرأتان اللتان أحدثتا هذا الحدث فى المسيحية هما مريم المجدلية ومريم أم يعقوب (على ما جاء فى الأناجيل الأربعة). وبقطع النظر عن قيمة هذه الرواية ودعوى المرأتين التى هى محل طعن مستمر من مخالفى المسيحية، فانه من التناقض البيّن أن يحقر المسيحيون المرأة الى هذا الحد الذى أشرنا اليه، مع أنهم يؤلهون المسيح بشهادة امرأتين، ويسلمون بأن طريقه الى الحياة كان بواسطة امرأة (بغير تدخل الرجل). وليس ذلك التناقض إلا آية الجهل بالمسيحية والأناجيل التى كان محظورا عليهم أن يطالعوها . ولم تشرع المرأة المسيحية فى نفض رأسها وكتفيها من هذه اللعنة إلا بعد أن أشرقت أنوار الدعوة المحمدية، وانبثقت من شبه جزيرة العرب فغمرت العالمين بضوئها الساطع؛ فتجلت المرأة على صورتها بشراسويا كاملا ممتازا هى والرجل سواء. والحق أن روعة الاسلام لا تتجلى فى شىء قدر تجليها فى تحرير المرأة من ربقة الذل والاحتقار، ورد اعتبارها و إعلاء مكانتها وتخويلها كل الحقوق التى خولها للرجل، والتى كانت قد أصبحت أثرا بعد عين تحت تأثير الجهل والظلم والتعصب. وما كان الاسلام ليفعل غير ذلك، وهو الدين الذى أريد به إصلاح أحوال البشر و إسعادهم فى مختلف العصور والأمكنة، ولا صلاح ولا سعادة لبنى الانسان ما لم تقف المرأة كما خلقها الله حرة كريمة على قدم المساواة مع الرجل، الذى يجب أن يكون مكانه منها مكان الشريك لشريكه لا السيد مع رقيقه .

الاســـلام والمـــرأة

حقارة شأن المرأة فى الجاهلية

جاء الاسلام فى بلاد العرب بعد فترة طويلة من تفشى الفوضى والهمجية بها، وهى الفترة التى تعرف باسم الجاهلية؛ فكان طبيعيا أن يكون نصيب المرأة هو نصيبها فى كل مجتمع فسدت أحواله واختلت موازينه؛ فكانت المرأة أحقر شأنا من الرقيق حتى بلغ الأمر بالآباء الى حد التخلص من بناتهن فى قسوة و وحشية لا عهد للبشر بها من قبـل إذ كانوا يئدونهن وهن على قيـد الحياة . وقد ظلت هـذه العادات الوحشية سائدة الى أن جاء القرآن فندّد بها وأغلظ على مرتكبيها ، وتوعدهم بالويل والثبور والعذاب المقيم فى الدنيا والآخرة : ﴿و إذا الموءودة سئلت . بأى ذنب قتلت﴾[1]. وقد جعل الاسلام القتل جزاء لمن يرتكب هذه الجريمة .

« و إذ الموءودة سئلت »

واذا كان الأمر قد بلغ بهؤلاء العرب الى حد وأد البنات، فتستطيع أن تتصور حظ النساء من الحياة العامة والحقوق المختلفة ، والتى يمكن أن تجمل فى كلمة واحدة وهى أنه : لا حق للمرأة فى شىء؛ فهى من سقط المتاع وليست من المتاع النفيس ، فكانت تباع وتشترى وتؤجر وتورث، وكان الرجل مهما علا قدره يسخر جواريه فى احتراف البغاء ، وقد يبعث بزوجته الى رجل آخر قائلا لهـا : «استبضعى من فلان »[2] وكان الرجلان يتبادلان ما لديهما من نساء . وكان الولد يرث امرأة أبيـه فيما يرث، وله أن يتصرف فيها كما شاء . وكان العشرة من الرجال يدخلون الى المرأة الواحدة فى ليلة واحدة ؛ فاذا أنجبت منهم ولدا ألحقته القافة[3] بأى الرجال العشرة . وهكذا الى آخر هذه الضروب من الفوضى والاضطراب التى تتلخص كلها فى شىء واحد : وهو حقارة المرأة وضآلة شأنها عند العرب بصفة عامة ، ما خلا الطبقات الراقية منهم كقريش مثلا حيث لم يكن أمرها الى هـذا الحد من السوء . على أن حرمان النساء من الميراث كان مسألة عامة مقررة؛ فلم يكن من حق امرأة أن ترث

استبضعى من فلان

---

(١) آية ٧ و ٨ سورة التكوير .
(٢) هو استفعال من البضع ، وهو الجماع .
(٣) القافة : جمع القائف ، وهو الذى يعرف النسب بفراسته ونظره الى أعضاء المولود .

عن أبيها فضلا عن زوجها شيئا من الأشياء، و إنما كان الميراث كله من نصيب الذكور حتى ولو كانوا بعيدى الصلة عن المتوفى .

القرآن ينصف المرأة

هذا هو الوضع الذى قلبه القرآن رأسا على عقب؛ فأحدث فى تاريخ المرأة أعظم انقلاب شهدته فى حياتها، لا قبل الاسلام فحسب بل و بعد الاسلام بعشرة قرون و بعد الثورة الفرنسية والبلشفية .

إنا خلقناكم من ذكر وأنثى

كان أول ما قرره القرآن وأكده أن هذه الجموع من بنى الانسان إنما تدين فى وجودها الى الذكر والأنثى مجتمعين، فلا فضل لذكر على أنثى أو أنثى على ذكر إلا بالعمل الصالح وقيام كل بواجبه ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم[1] ﴾ .

﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا[2] ﴾ .

تسوية القرآن للرجل والمرأة فى الواجبات

حتى إذا فرغ القرآن من تقرير هذه المقدمة فقد رتب عليها النتيجة المنطقية، بأن جعل المرأة مسئولة أمام الله عن جميع أعمالها مسئولية الرجل على السواء، فوعدها الحسنى إذا أحسنت كما وعد الرجل، وأنذرها بالعقاب إن هى أساءت، وقاس أعمالها بنفس المقاييس التى يقيس بها أعمال الرجل، وفرض عليها كل ما فرضه على الرجل من عبادات و واجبات وفرائض وأركان؛ غير مفرق بين الرجل والمرأة فى أى جزئية من هذه الأجزاء، بل لقد خلط بين الرجل والمرأة فوجه الخطاب اليهما فى كل عباراته، حتى صار من الأحكام المقررة فى الشريعة الإسلامية أن كل ما كلف به الرجل فالمرأة مكلفة به، إلا إذا استثناها القرآن أو السنة بصريح اللفظ أو دل على ذلك شواهد الحال . وحسب الانسان أن يطالع هذه النصوص لكى يتبدد فى نفسه كل ظل للشك فى نظرة القرآن للمرأة والرجل .

---

(١) آية ١٣ سورة الحجرات . (٢) أول سورة النساء .

لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى

﴿ فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب (١) ﴾ . ﴿ ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا (٢) ﴾ .

﴿ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما (٣) ﴾ .

فهذه نصوص شاملة جامعة لكل ما يمكن أن يوصف به الرجل من فضائل وآداب، وكل ما يزاوله من أعمال وسعى وجهاد قد وجه القرآن فيها الحديث للمرأة مثل توجيهه للرجل . وليس وراء ذلك مطمع لأرقى النساء فى العصر الحاضر اللواتى يحاذين الرجال بالمناكب وينادين بالمساواة المطلقة مع الرجال من حيث الكرامة والمكانة والتمتع بالحقوق العامة .

خديجة أول من آمن بالرسول

ولا عجب أن يكون ذلك هو موقف القرآن بالنسبة للمرأة ، فقد كانت إمرأة هى أول من آمن بالرسول على الإطلاق، بل لعلها آمنت به قبل أن يستوثق من تكليفه برسالته ، ونعنى بهذه المرأة « خديجة » رضى الله عنها . وكانت هى التى هدأت روعه وثبتت جنانه وضاعفت ثقته بنفسه وبربه عندما حدثها بهواجسه وكان فى شك من أمره (٤) .

---

(١) آية ١٩٥ سورة آل عمران. (٢) آية ١٢٤ سور النساء. (٣) آية ٣٥ سورة الأحزاب.

(٤) قالت عائشة : « ... فرجع بها (ما نزل عليه من الآيات) يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد فقال زملونى زملونى فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر لقد خشيت على نفسى فقالت خديجة كلا والله ما يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق فانطلقت به خديجة الى ابن عمها ورقة بن نوفل ... ... » راجع الحديث فى الصحاح . باب بدء الوحى .

وكانت امرأة هى التى دفعت بعمر بن الخطاب الى الإيمان ، وأعنى بها أخته عند ما دهمها وهى ترتل آيات القرآن فكان ذلك سبب إسلامه . وكان النساء بصفة عامة من أوّل الملبيات لدعوة رسول الله ، ومن أشدّ أنصاره غيرة وحماسة حتى كان منهنّ من هاجر الى الحبشة نجاة بنفسه و بدينه من فتنة المشركين ، وقد ارتد بعض الرجال عن الاسلام بعد ذهابهنّ الى الحبشة فثبتت نساؤهم على الاسلام . وهكذا سبقن بالفضل مع أوّل من سبق ؛ بل لقد رجح رسول الله جانب إحداهنّ وهى « أسماء بنت عميس » على عمر عند ما احتكمت اليه فى أيهما أحق برسول الله من الآخر ، وكان ذلك بعد مناقشة دارت بين أسماء وعمر فى هذا الموضوع (١) .

هجرة المؤمنات الأولى إلى الحبشة

أسماء بنت عميس ومكانتها الرفيعة

ولم يكن هناك موطن من مواطن الأذى والاضطهاد لم تأخذ النساء المسلمات بنصيبها الأوفر فيه ، حتى كان لإيمانهنّ وثباتهنّ ووروعهنّ أعظم الأثر فى نفوس الرجال من المشركين فدخلوا فى دين الله أفواجا وكان دخولهم تبعا لدخول نسائهم . فليس غريبا والحالة هذه أن يوجه القرآن خطابه للمرأة مثل خطابه للرجل ، وأن يفرض عليها كل ما فرضه للرجل ، وأن يعلى من شأنها وكرامتها و يجزل عطاءها كما فعل مع الرجل .

---

(١) روى مسلم عن أبى موسى قال : « ... فدخلت أسماء بنت عميس ، وهى ممن قدم معنا على حفصة زوج النبى صل الله عليه وسلم زائرة ، وقد كانت هاجرت الى النجاشى فيمن هاجر اليه ؛ فدخل عمر على حفصة وأسماء عندها فقال عمر حين راى أسماء : من هذه ؟ قالت : أسماء بنت عميس ؛ قال عمر : الحبشية هذه ، البحرية هذه ! فقالت أسماء نعم ! فقال عمر : سبقنا كم بالهجرة فنحن أحق برسول الله صلى الله عليه وسلم منكم ؛ فغضبت وقالت : كذبت (أى أخطأت) يا عمر ، كلا والله ، كنتم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يطعم جائعكم و يعظ جاهلكم وكنا فى أرض البعداء البغضاء فى الحبشة وذلك فى الله و فى رسوله ؛ وآيم الله لا أطعم طعاما ولا أشرب شرابا حتى أذكر ما قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحن كنا نؤذى ونخاف وسأذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأسأله ، ووالله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد على ذلك ؛ فلما جاء النبى صلى الله عليه وسلم قالت : يا نبى الله ان عمرا قال كذا وكذا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليس بأحق بى منكم وله ولأصحابه هجرة واحدة ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان " .

مساواة المرأة بالرجل فى الحقوق المدنية

على أن الاسلام لم يقف عند حد تقرير المساواة بين الرجل والمرأة فى الأمور الدينية أو من الناحية الأدبية البحتة ، بل لقد ساوى بين الاثنين فى جميع الحقوق المدنية ؛ فجعل للمرأة كل ما للرجل من أهلية كاملة فى تملك الحقوق المالية والتصرف فيها بكافة أنواع التصرفات ، سواء كانت بالبيع أو الشراء أو الهبة والإيصاء أو الإعارة والتأجير أو الوكالة والإنابة ، وغير ذلك من عقود الالتزامات والمعاوضات والتبرعات ، وما يتبع ذلك من حق الدفاع عن مالها كالدفاع عن نفسها بالتقاضى أمام القضاء وغيره من الوسائل المشروعة . فمتى رشدت البنت وأدركت سن البلوغ صار لها كل ما للولد البالغ من الحق المطلق فى التصرف بأموالها ومباشرة الدعاوى بشخصها ، ولم يجز للأب أو الأخ أو الزوج أن يعترض مشيئتها إلا على سبيل النصح والارشاد ، ولم يجز لأحد أن يباشر إدارة أموالها فضلا عن التصرف فيها بغير إذنها ورضاها ، وليست هى فى حاجة الى إذن أحد لتصحيح تصرفاتها ، وهو أمر لا تتمتع به المرأة الفرنسية حتى فى عصرنا الحديث حيث تفقد أهلية التصرف فى أموالها بالزواج فلا تعود قادرة على التصرف فيها إلا بموافقة زوجها وإجازته لتصرفاتها . وحسب الانسان هذا الفارق الخطير ليدرك عظم هذا الانقلاب الذى جاء به الاسلام منذ ثلاثة عشر قرنا فى حياة المرأة .

أهلية المرأة الكاملة

وكان طبيعيا وقد قضى الاسلام للمرأة بكافة الحقوق المدنية التى قضى بها للرجل أن يجعلها شريكة فى الميراث كالرجل ، على خلاف ما كان عليه الاجماع فى شبه جزيرة العرب من حرمان النساء من كل ميراث ﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا ﴾ (١) .

للنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ...

ولقد كان لتقرير حق النساء فى الميراث قصة تروى فتمس أوتار القلوب وتظهر مدى ما فى الاسلام وقلب الرسول من رقة وسماحة وبر بالنساء وعطف عليهن

(١) آية ٧ سورة النسا

وتدعيم لحقوقهن؛ فقد روى جابر بن عبد الله قال : جاءت امرأة سعد بن الربيع بابنتيها من سعد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يارسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما معك يوم أحد شهيدا و إن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالا ولا تنكحان إلا ولهما مال؛ قال : " يقضى الله فى ذلك " فنزلت آية الميراث؛ فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى عمهما فقال : " أعط ابنتى سعد الثلثين واعط أمهما الثمن وما بقى فهو لك "[1] .

آية المواريث وسبب نزولها

أى أن رسول الله لم يبق للعم إلا أقل من سدس الميراث و رد الباقى لابنتى سعد بن الربيع وأمهما، وقد كان ذلك انقلابا خطيرا، لم تكن أقرب المقربات الى الرسول تحلم به فضلا عن أن تطمح إليه، ومع ذلك فقد قضى به القرآن فى وقت ما كان أحوج الرسول فيه الى تأييد الرجال وسواعدهم فى القتال . وليس وراء ذلك برهان على أن الرسول لا ينطق عن الهوى و إنما هو وحى يوحى .

وقد حاول البعض فى العصور المتأخرة أن يتخذ من موضوع الميراث حجة للغض من شأن المرأة وانتقاص أهليتها واعتبارها على النصف من قدر الرجل، باعتبار أن نصيبها فى الميراث هو نصف نصيبه عملا بنص الآية : ﴿يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين﴾[2] . وليس وراء ذلك تخبط فى التأويل . فالحقيقة أن الشريعة الاسلامية على خلاف كثير من التشريعات الأخرى (التى تفرض على المرأة أن تسوق المهر لزوجها) قد فرضت على الرجل أن يكون هو الذى يسوق المهر لزوجته مهما كانت زوجته من أغنى الأغنياء . ولا يصح زواج ولا ينعقد بغير مهر يدفعه الرجل للمرأة كل على قدر سعته ومكنته . وفرض على الرجل بعد ذلك أن ينفق على زوجته وأن لا يكلفها انفاق شىء من مالها؛ فكان من العدل والحالة هذه أن يزيد فى نصيب الولد والرجل على العموم بالنسبة لنصيب المرأة حيث إنه مكلف بأداء هذه الالتزامات المالية قبل المرأة؛ فكأن مانقص من ميراث البنت هو فى مقابل ماسوف يرد لها على سبيل

الحكمة فى جعل نصيب الأنثى على نصف نصيب الرجل

---

(١) رواه الترمذى . (٢) آية ١١ سورة النساء .

المهر والنفقة . فالأمر لا يعدو والحالة هـذه تنظيما ماليا قد نظر فيـه الى الأعباء والتكاليف المـالية المفروضة على كل شخص، وليس أدل على ذلك من هذا المثال الذى سقناه فى بنات سـعد بن الربيع، فقد تقاضت البنتان من الميراث مع أمهما أزيد من خمسة أسداس التركة بينما لم ينل الرجل وهو العم إلا أقل من السدس . ولو مات رجل عن بنت وأبوين لأخذت البنت نصف ما ترك أبوها واستحقت بذلك نصيبا أكبر من أبيه وهو الرجل؛ فلو أن الأقدار تقاس بالنصيب فى الميراث لوجب أن نقول إن البنت فى هذه الحالة أفضل من الأب ، مع أن فضل الأب مقدم على كل فضل وحقه على ولده فوق كل اعتبار ، حتى لقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحد الصحابة : "أنت ومالك لأبيك"[1] ومع ذلك فلم يفرض القرآن للأب فى الميراث إلا السدس عنـد وجود الولد ﴿ فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ماترك و إن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد[2] ﴾ .

البنت تأخذ أكثر من الأب

ويلاحظ أن الآية من ناحية أخرى تسوى بين الأبوين فتفرض لكل منهما السدس على سبيل المساواة، سواء فى ذلك الأب أو الأم، ولم يقض القرآن للوالد بالسـدس عند وجود الولد إلا لأن حاجته إلى المـال وقد كبر سـنه وكملت تربيته لا تقاس بحاجة الولد الصغير الذى لا يزال فى حاجة إلى تربية و إلى مواجهة أعباء الحياة . ومثل ذلك يقال عن البنت التى سيتقدم من يدفع لها مهرا وينفق عليها ، فإنها لا تكون فى حاجة إلى المـال مثل حاجة أخيها الذى سيسوق المهر وينفق على زوجته المقبلة . وعلى هذا الضوء يجب أن ينظر إلى آية المواريث وأن يفهم سرّ ما فيها من تقسيمات مختلفة، لا أن تتخذ مقياسا للكرامة والمكانة والاعتبار[3] .

المساواة بين الأب والأم

---

(١) راجع تفسير القرطبى ج ١٠ ص ٢٤٥

(٢) آية ١١ سورة النساء .

(٣) يحسن بنا أن نشير فى هذا الموضوع الى ما يجرى عليه العمل فى انجلترا حيث يخص الابن الأكبر دون بقية اخوته بجملة الميراث، ولم يكن فى ذلك أدنى مساس بكرامة الآخرين أو اعتبارهم .

حق المرأة المطلق فى التصرف بشخصها

على أن حق المرأة فى المساواة مع الرجل لم يبلغ ذروته إلا عند ما أباح لها الإسلام حق التصرف المطلق فى شخصها، ولم يجعل لأحد عليها من سلطان إلا سلطان إرادتها ورغبتها الحرة الخالية من كل ضغط أو إكراه. فمتى رشدت البنت بإدراك سن البلوغ وهو ما تبلغه الفتيات فى الشرق فى سن مبكرة جدا لم يعد من الجائز لأحد أن يتصرف فى حريتها الشخصية بزواجها حين لا تريد الزواج، أو بالحيلولة بينها وبين الزواج حين تريده، أو بإكراهها على زواج من لا تحب أو تختار؛ فقد روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: "لا تنكح الأيم حتى تستأمر ولا تنكح البكر حتى تستأذن". وفى رواية أخرى: "الثيب أحق بنفسها من وليها والبكر تستأمر واذنها سكوتها". والرضاء عن طريق السكوت هو ما يسمى فى القانون بالرضاء الضمنى، وسببه أن الحياء قد يحول بين البنت الصغيرة وبين أن تبدى موافقتها صراحة فيكون سكوتها متضمنا لمعنى الموافقة، أما إذا كان المستفاد من سكوت البنت هو عدم رضائها، كما لو صرحت بما يدل على عدم رضائها ففى هذه الحالة يفقد الزواج ركنا من أهم أركانه ويصبح العقد فاسدا، ومن حق الفتاة أن تسعى لفسخ هذا العقد حتى بعد تمامه. وقد دل على ذلك ما رواه أبو داود وأحمد[1] من "أن جارية بكرا جاءت إلى النبى صلى الله عليه وسلم فذكرت أن أباها زوجها وهى كارهة فخيرها النبى صلى الله عليه وسلم"، أى إن شاءت أبقت على الزواج وإن شاءت فسخته. وروى أحمد والنسائى باسنادهما أن فتاة جاءت إلى رسول الله (ص) فقالت إن أبى زوجنى من ابن أخيه ليرفع بى خسيسته؛ فجعل الأمر إليها فقالت: قد أجزت ما صنع أبى ولكنى أردت أن تعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شىء[2]". تعنى أنه ليس لهم إكراههن على التزوج بمن لا يرضينه.

لا تنكح الأيم حتى تستأمر

أردت أن أعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر

(١) ج ١ ص ٣٧٣ (٢) مسند الإمام أحمد ج ٦ ص ١٣٦

وليس وراء هذا النص إظهار لمدى الحرية التامة المطلقة التى منحها الإسلام للمرأة ؛ فهذه فتاة قد أنكرت على أبيها أن يزوجها بغير رضاها مع أنها ليست كارهة لمن تزوجت ، فلما خيرها رسول الله بين أن تبقى على الزواج أو تفسخه ، ورأت فى ذلك ما يحقق كرامتها ويؤكد حريتها فى اختيار زوجها ، رأت أن تحتفظ بالزوج الذى اختاره لها أبوها بعد أن فازت بتقرير المبدأ . ولم تفز المرأة الحديثة فى أرقى المجتمعات حضارة بهذا الحق إلا فى عصور متأخرة جدا من الناحية النظرية ، بينما كانت تتمتع به المرأة المسلمة نظرا وعملا منذ ألف وثلثمائة سنة على ما تنبئ هذه الأحاديث المتواترة .

عصمة المرأة بيدها

وإذا كان الإسلام قد جعل فسخ الزواج بالطلاق من حق الرجل وحده فقد نظر الإسلام فى ذلك إلى صالح الأسرة وضمان بقائها ؛ فالرجل دائما أبدا أحرص على بقاء الزوجية من المرأة لما أنفق من مال وتكبد من عناء حتى ظفر بزوجته . وهو على العموم أملك لنفسه من المرأة عند الغضب التى تعصف بها العواطف ، حتى لتنسى فى لحظة واحدة عشر سنوات من الهناء والمودة والحب ، وما ذلك إلا لفرط حاسيتها وسرعة استجابتها للعاطفة . ومن أجل هذا السبب وحده قرر الإسلام أن يكون الطلاق حق الرجل ، ولكنه لم يحرم على المرأة استعمال هذا الحق ، بل أباح لها إذا شاءت أن تشترطه عند تحرير العقد ، فيكون لها من الحق فى تطليق نفسها مثل ما لزوجها ، وهو ما يعبرون عنه فى الاصطلاح بـ«العصمة» ؛ فيقولون « عصمتها بيدها » . وحتى لو لم تشترط هذا الشرط لنفسها ، فإن بمكنتها دائما أن تلجأ إلى القضاء إذا رغبت فى الطلاق وجدّ من الأسباب الطارئة ما يبيح الطلاق ؛ لعيب خفى أو لمرض خطير أو عجز عن الانفاق أو غيبة مستمرة أو هجر طويل أو شقاق مستحكم ، وفى هذه الحالة الأخيرة يجب أن يسبق الطلاق محاولة الإصلاح والتوفيق بين الزوجين .

فاذا انقضت الشركة الزوجية سواء بالطلاق أو بوفاة الزوج فقد عاد للمرأة كامل الحرية المطلقة فى التصرف بشخصها وحريتها بالمعروف ، فليس لزوج سابق

أو أب أو ابن أن يحول بينها و بين أن تتزوج من جديد، أو أن تعود لزوجها القديم، أو أن تأخذ بحظها من الحياة العاملة النشيطة الشريفة ؛ واقرءوا إن شئتم : ﴿ فإذا بلغن أجلهنّ فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهنّ بالمعروف[1] ﴾ . ﴿ و إذا طلقتم النساء فبلغن أجلهنّ فأمسكوهنّ بمعروف أو سرحوهنّ بمعروف ولا تمسكوهنّ ضرارا لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه[2] ﴾ . ﴿ و إذا طلقتم النساء فبلغن أجلهنّ فلا تعضلوهنّ أن ينكحن أزواجهنّ إذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر[3] ﴾ . ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج، فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهنّ من معروف[4] ﴾ . وهذا سيل متدفق من الآيات الكريمة يأخذ بعضها برقاب بعض، ولا هدف لها أو غاية إلا الضغط على إبراز حق المرأة فى حرية التصرف بشخصها، وأن ليس لمخلوق عليها من سلطان أو يد عليها إلا الزوج أثناء قيام الحياة الزوجية، وذلك لمصلحة الأسرة و بقيود وشروط سنبينها ونشرحها فيما بعد .

فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهنّ بالمعروف

مشاركة النساء للرجال
فى سائر مناحى النشاط الانسانى وضروبه

وقد كان من الطبيعى ، وقد ساوى الإسلام بين الرجل والمرأة فى جميع هذه الحقوق الدينية والمدنية والشخصية ، أن نرى المرأة المسلمة تشارك الرجل فى كل شأن من شئون الحياة ، وعلى أوسع نطاق يمكن أن يطوف بالذهن أو يشاهد فى عصرنا الحديث فى البلاد الراقية وتطمع فيه الفتاة المتعلمة خريجة الجامعات والمعاهد العالية ؛ فقد كان النساء يشهدن صلاة الجماعة مع الرجال فى المسجد، ولم يكن المسجد فى عصور الإسلام الأولى كما هو الحال اليوم خاويا خربا إلا من راغبى الصلاة، و إنما كان المسجد هو دار الحكم والندوة ، وهو الجامعة وهو المدرسة وهو ملتقى

---

(١) آية ٢٣٤ سورة البقرة . (٢) آية ٢٣١ سورة البقرة . (٣) آية ٢٣٢ سورة البقرة . (٤) آية ٢٤٠ سورة البقرة .

الوفود والحشود، وهو دار القضاء وميدان الاحتفالات. وقد أباح الرسول للنساء التخلف الى المسجد فى أى وقت شاءوا فى الصباح المبكر أو الليل المتأخر أو فى وضح النهار، بل أباح لهنّ أيام الاحتفالات الدينية الجامعة أن يحضرن الى المسجد للاشتراك فى الاحتفال دون الصلاة (إذا كان هناك عذر مانع للمرأة عن الصلاة) . بل لقد ذهب الرسول الى أبعد من ذلك كله فندبهنّ ندبا الى الخروج من بيوتهنّ فى يوم العيد للاحتفال به مع بقية المسلمين (١) .

وقد حاول بعض الصحابة ممن لا تزال التقاليد الجاهلية تتحكم فيهم أن يحول بين زوجته و بين الذهاب الى المسجد وخاصة بالليل لصلاة العشاء، فأمر الرسول الرجال أمرا أن يكفوا عن اعتراض نسائهنّ ؛ وهو ما رواه البخارى من حديث آبن عمر « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله » وقد جلس آبن عمر يحدّث يوما بهذا الحديث فقال " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إيذنوا للنساء بالليل الى المساجد "، وكان لابن عمر ولد يسمى واقد قد جلس فيمن جلس يستمع الى الحديث فاعترض على أبيه قائلا : إذن يتخذنه دغلا (٢) . فضرب آبن عمر فى صدر ابنه وقال : أقول قال رسول الله وتقول لا . وحدّثت السيدة عائشة أن رسول الله (صلعم) كان يصلى الصبح بغلس (٣) فينصرف نساء المؤمنين لا يعرفن من الغلس . وكثيرا ما كان رسول الله يسرع فى أداء الصلاة إذا سمع بكاء الطفل فى طلب أمه .

لا تمنعوا إماء الله مساجد الله

---

(١) جاء فى كتاب المغنى والشرح الكبير تحت عنوان (خروج النساء إلى المصلى فى العيد للصلاة مع الجماعة) : ولا بأس بخروج النساء يوم العيد إلى المصلى . وقال ابن حامد : يستحب ذلك . وقد روى عن أبى بكر وعلى رضى الله عنهما أنهما قالا : حق على كل ذات نطاق أن تخرج إلى العيدين . وكان ابن عمر يخرج من استطاع من أهله فى العيدين . وروت أم عطية قالت : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نخرجهنّ فى الفطر والأضحى : العواتق وذوات الخدور فأما الحيض فيعتزلن الصلاة و يشهدن الخير ودعوة المسلمين ، قلت : يارسول الله إحدانا لا يكون لها جلباب ؟ قال : « لتلبسها أختها من جلبابها » متفق عليه . وهذا اللفظ رواية مسلم ، ولفظ رواية البخارى قالت : كنا نؤمر أن نخرج يوم العيد حتى تخرج البكر من خدرها وحتى يخرج الحيض فيكن خلف الناس فيكبرن بتكبيرهم و يدعون بدعائهم يرجون بركة ذلك اليوم وطهرته .

(٢) الدغل (بالتحريك) : الشجر الملتف الذى يكمن أهل الفساد فيه .

(٣) الغلس (بالتحريك : ظلمة آخر الليل .

اختلاط النساء بالرجال فى الحج

ولم تكن الصلاة هى كل ما يشترك فيه النساء مع الرجال فى مكان واحد، وإنما كنّ يشتركن والرجال فى الحج وهو ما يستلزم السفر والانتقال لبضعة أسابيع إن لم يكن أشهر، حيث لم يكن سبيل للمواصلات غير الجمل. وكان الحج ولا يزال أعظم مجال لاختلاط الرجال بالنساء، حيث يتكأ كأ ألوف وعشرات الألوف من الرجال والنساء فى صعيد واحد، بحيث يختلط الحابل بالنابل على أوسع نطاق يمكن أن يتصور.

اشتراك النساء فى الحرب

وكانت النساء تصحب الجيوش الى ميادين القتال، وتقوم بكل ما تقوم به النساء فى الجيوش الحديثة من الأعمال المكملة والمساعدة، فلم تقتصر مهمتهنّ على إسعاف الجرحى ومداواة المرضى، وانما كنّ يسقين العطاشى ويجهزن الطعام ويدفن الموتى وينقلن الجرحى الى ما وراء خطوط القتال وهن فى أثناء ذلك كله يحرضن على القتال. قالت الربيع بنت معوذ (رضى الله عنها): «كنا نغزو مع النبى صلى الله عليه وسلم فنسقى القوم ونخدمهم ونرد الجرحى والقتلى الى المدينة»[(١)]. وقالت أم عطية: «غزوت مع النبى صلى الله عليه وسلم سبع غزوات أخلفهم فى رحالهم فأصنع لهم الطعام وأداوى الجرحى وأقوم على المرضى»[(٢)]. وقال أنس رضى الله عنه: «لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبى صلى الله عليه وسلم ولقد رأيت عائشة بنت أبى بكر وأم سليم وإنهما لمشمرتان أرى خدم[(٣)] سوقهما تنقلان القرب على متونهما ثم تفرغانها فى أفواه القوم ثم ترجعان فتملآنها ثم تجيئان فتفرغانها فى أفواه القوم[(٤)]».

الرسول يشرك النساء فى الغنائم

وقد كان رسول الله يعطى للنساء من الغنيمة مقابل كدهنّ ونشاطهنّ فى ميدان القتال على ما قرر ابن عباس فى رده على أحد الخوارج الذى سأله فى هذا الموضوع: تسألنى هل كان رسول الله يغزو بالنساء. وقد كان يغزو بهنّ فيداوين الجرحى ويحذين[(٥)] من الغنيمة[(٦)].

---

(١) رواه البخارى. (٢) رواه مسلم. (٣) خدم (بالتحريك جمع خدمة): موضع الخلخال. (٤) رواه الشيخان. (٥) أى يعطين الحذوة. والحذوة (بضم الحاء وكسرها): العطية. (٦) الحديث بطوله رواه الخمسة.

حق المرأة فى التعلم والتعليم

على أن الموطن الأكبر الذى صالت المرأة فيه وجالت، ونافست فيه الرجل وتفوقت عليه فى بعض الأحيان ولم يصدها عنه صاد أو يحول بينها و بينه حائل هو موطن العلم، ذلك الموطن الذى فرضه الإسلام على المرأة كما فرضه على الرجل؛ فما كان للمرأة المسلمة أن تخدم دينها إلا اذا تعلمت ونضج تعليمها. فليس الإسلام شعوذة أو دجلا أو أوهاما يحتكرها أشخاص معينون يصفون أنفسهم بأنهم سدنة الدين وحفظته. فليس فى الاسلام كهنوت أو كنيسة؛ و إنما الاسلام علم مشاع، بل وعلم مفروض على كل من دان به. ولذلك فقد اجتمعت الآراء على أن الحديث القائل: "طلب العلم فريضة على كل مسلم" يشمل فى مدلوله كل مسلمة؛ لأن الدين لم يفرق فى أى حكم من أحكامه بين الرجل والأنثى كما قررنا من قبل، ولذلك فقد تهافت النساء كتهافت الرجال على طلب العلم والتثقيف بثقافة الإسلام والاغتراف من مناهله العذاب فى شخص رسول الله والخلفاء وكبار الصحابة والعلماء من بعده. وقد كان على نساء النبىّ بنص القرآن أن يتلقين العلم عن رسول الله ليعلمنه للناس من بعده ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾[1].

واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة

وقد قامت نساء النبىّ بعد وفاة رسول الله بما عهد به اليهنّ؛ فنقل عنهنّ المسلمون الأحاديث ومختلف الآراء والأحكام واستفتوهنّ فى أمور الدين والدنيا. على أن السيدة عائشة كانت صاحبة القدح[2] المعلى والنصيب الأوفر والأكمل فى هذا الباب، فقد بلغت فى العلم أعلى مكانة بما لامطمع بعده لمستزيد، حتى كان مشيخة الصحابة وعلى رأسهم أبو بكر وعمر وعثمان يسألونها فى بعض ما يعرض لهم من المشاكل، وكانوا يسألونها بصفة خاصة فى علم الفرائض وهو من أدق علوم الفقه وأعصاها على أذكى الأذكياء الى وقتنا الحاضر. وقد حدّثنا بذلك ابن سعد فى طبقاته

مكانة السيدة عائشة العلمية

---

(١) آية ٣٤ سورة الأحزاب.

(٢) القدح (بالكسر): السهم. والمعلى (بفتح اللام): القدح السابع فى الميسر، وهو أفضلها.

عمن كان يفتى فى المدينة بعد وفاة الرسول فقال : « وكانت عائشة تفتى فى عهد عمر وعثمان رضى الله عنهما الى أن ماتت يرحمها الله ، وكان الأكابر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرسلان اليها فيسألانها عن السنن » . وذكر ابن سعد عن مسروق قال : « والذى نفسى بيده لقد رأيت مشيخة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الأكابر يسألونها عن الفرائض » .

السيدة عائشة تحذق الطب والشعر والفقه

ولا يتوهمن أحد أن علم السيدة عائشة كان محدودا بحدود الفقه والدين ؛ فقد كانت من أعلم الناس كذلك بسائر فروع العلم والمعرفة السائدة فى ذلك العصر وهى الشعر والأدب والطب ، فقد حدّثنا هشام بن عروة عن أبيه قال : « ما رأيت أحدا أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة »[1] .

ولم تكن السيدة عائشة هى الوحيدة الفذة فى ذلك المضمار ، فأمهات المؤمنين كنّ يحذين حذوها على اختلاف فى قدرة كل منهنّ . وقد ظلت المدينة موطنا لطالبات العلم المتفوقات فيه واللواتى اضطلعن بالفتيا الى جوار الرجال واشتهرن بها فى بعض الأحيان . فهذا عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموى يرسل الى عامله على المدينة أبى بكر بن محمد على ما جاء فى طبقات ابن سعد فيقول له : « انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أو سنة ماضية أو حديث عمرة بنت عبد الرحمن فاكتبه فإنى خفت دروس العلم وذهاب أهله » . وليس وراء هذه المكانة فى العلم مطمع لرجل من الرجال الأفذاذ أن يأمر خليفة المسلمين بتسجيل ما يقول وما يعلمه خوفا على العلم وضياعه ودروسه .

عمرة بنت عبد الرحمن

وقد سجل التاريخ فيما سجل اسم السيدة سكينة بنت الحسين بن على التى كانت سيدة نساء عصرها أدبا وعلما وكمالا واشتهارا بالنقد الأدبى . والسيدة نفيسة التى قيل عنها أن الامام الشافعى قد سمع منها الحديث ، وكانت هى التى صلت عليه لما مات وهناك غير ذلك عشرات الأسماء من النساء الأعلام اللواتى حاضرن فى المساجد

سكينة بنت الحسين والسيدة نفيسة

---

(١) كتاب نداء الجنس اللطيف للمرحوم الشيخ رشيد رضا .

فى الفقه والتاريخ والأدب وضربن بسهم وافر فى عالم التصوف والطريق ، كربعة العدوية ، والشيخة شهدة الملقبة بفخر النساء التى كانت تحاضر فى القرن الخامس الهجرى بجامع بغداد ، وفضل الشاعرة ، وزينب أم المؤيد وغيرهن . ومن العبث أن يحاول الانسان أن يحصى شهيرات النساء فى مضمار العلم ؛ لأن التاريخ إذ ذكر واحدة فقد أغفل العشرات لأسباب مختلفة .

نساء شهيرات

وفى كلمة فإن النساء نافست الرجال فى مضمار العلم ؛ فليس من حرج فى أى عصر وزمان ومكان أن تحذق المرأة من العلوم كل ما تسعه قدرتها ، فالعلم كله خير وبركة ، والمتعلم أفضل من الجاهل ، بل أن المتعلم حىّ أما الجاهل فخارج عن حظيرة الانسان المتمدن .

فإذا سعت امرأة فى عصرنا الحديث لحذق الفقه والقانون والتشريع فلا حرج فى ذلك ، وقد كان هذا لب ما اشتغل به النساء فى صدر الاسلام ... وإذا سعت امرأة فى عصرنا الحديث لحذق فن الطب وعلومه فهى لا تقوم بعمل مرغوب فيه فحسب ، بل تؤدى عن المسلمين فرضا من فروض الكفاية ؛ إذ يجب على فريق من المسلمين والمسلمات حذق هذا الفن وإلا أثم المسلمون جميعا لعدم استغناء المجتمع عن هذا العلم سواء فى ذلك الرجال والنساء . وقد رأينا كيف أن التمريض والتطبيب كان ولا يزال من أخص خصائص النساء فى زمنى الحرب والسلم ، واذا كان علم الطب لم يعد ككل العلوم الأخرى ، هذا العلم الساذج البدائى ، فإن واجب الراغبة فى حذق هذا العلم أن تتلقاه فى معاهده وعلى يد أساتذته ، وأن تنال من التدريب والمران كل ما يؤهلها لإحسان القيام به .

ندب النساء لتعلم الطب

حق المرأة فى احتراف أى حرفة شريفة عند الضرورة

ولما كان الاسلام قد قضى للمرأة بالحق الأول فى استغلال ثروتها واستثمار أموالها والتصرف فيها ، فقد حق لها أن تزاول أى حرفة من الحرف الشريفة ، وأن تتعلم كل ما تراه نافعا لإحسان قيامها على أموالها أو اكتساب رزقها بشرف حين

فقدها العائل. فهذه السيدة خديجة رضى الله عنها كانت تاجرة من أشهر تجار قريش بعد وفاة زوجها ؛ الأول وكانت التجارة هى سبب اتصالها بالرسول هـذا الاتصال الذى انتهى بالزواج الموفق السعيد . ولا مراء فى أن السيدة خديجة كانت تعلم كل ما يعلمه التجار فى عصرها من أصـول التجارة وأسواقها وفنونها ، وإلا لما نفقت تجارتها وربحت . فلو أن امرأة فى العصر الحديث التمست علوم التجارة وما يتصل بها لما كان فى ذلك عليها حرج أى حرج ، كما لو اشتغلت بالتجارة بالفعل أو الأعمال المتصلة بها . وكذلك لو اشتغلت أى امرأة بالزراعة أو الصناعة ؛ فقد كان النساء على عهد الرسول يقمن بمثل هذه الأعمال وغيرها حسب قدرتهن دون أن ينكر عليهن الرسول حقهن فى ذلك أو يزهدهن فيه . فهذا جابر الصحابى يحدّثنا أن خالته طلقت ثلاثا فخرجت تجدّ[1] نخلها فلقيها رجل فنهاها عن ذلك ؛ فذكرت ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فقال لها : "اخرجى فجدّى نخلك لعلك أن تصدّقى منه أو تفعلى خيراً"[2] . ولم يكن بمقدرة الرسول أن يقول لها غير ذلك ، وهو الذى قضى لها بالأهلية الكاملة والحرية المطلقة والمساواة التـامة مع الرجل فى الحقوق والمعاملات . وليس من عار على المرأة أن تكسب من عرق جبينها ، أو أن تكون أداة فعالة منتجة ، بل قد يكون ذلك آية شرفها وفخارها ، كما لو توفى زوج مخلفا زوجته فى أولاده الصغار ولم يكن هناك من يعولها أو يعولهم فقامت وجدّت واجتهدت فاشتغلت بعمل من الأعمال لتربيـة صغارها . وكما لو كانت فقـيرة ورغبت فى الاحتفاظ بعفافها وعصمتها فاشتغلت لتعول نفسها أو لتعول أبوين مريضين أو كسيحين أو مقعدين أو لتعين زوجها الذى أقعده المرض عن اكتساب رزقه . ففى كل هذه الأحوال وغيرها يكون من محامد الفتاة أو المرأة أن تكسب ما يسد حاجتها وحاجة أقربائها . ولما كانت المرأة لن تستطيع فى عصرنا الحديث أن تضطلع بأى عمـل شريف إلا اذا كانت على جانب من العلم فقد صار قول الرسول بأن "طلب العلم فريضة على كل مسـلم ومسلمة" واجب اليوم مائة مرة بأكثر مما كان بالأمس ؛ لمنفعة الدين والدنيا معا .

أخرجى فجدى نخلك

---

(١) الجداد (بالفتح والكسر) : حرام النخل ، وهو قطع ثمرتها .

(٢) رواه أبو داود ومسلم والنسائى .

حق النساء فى المساواة مع الرجال فى الحقوق العامة

بقى أن يعرف من لم يكن يعرف أن الاسلام لم يغلق فى وجه المرأة أى باب من أبواب النشاط الاجتماعى والأدبى والسياسى، وأنه قد سار فى شوط المساواة حتى نهايته؛ فمنح منذ ألف وثلثمائة سنة المرأة المسلمة الى الأبد الحقوق التى لا تزال محل نزاع حتى فى أرقى الأمم الحديثة، وأعنى بها الحقوق السياسية، وحق تقلد الوظائف العامة، و إبداء الرأى فى المسائل العامة، وكل ما يعرض من أمور تمس الصالح العام أو الصالح الخاص بالنساء بما فى ذلك الدعوة للإصلاح ومحاربة الفساد والمنكرات، وكل ما يعود بالضرر الوخيم على جماعة المسلمين . وقد فتح القرآن هذا الباب للنساء على مصراعيه بقوله : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم (١) ﴾. فاذا علمنا أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يقف عند حد، ولا يحيط به نطاق معين، بل يشمل كل مافيه صلاح للفرد والمجموع بما فى ذلك نقد القوانين والتشريعات الموضوعة والأنظمة والأحكام وتصرفات القادة والزعماء والضرب على أيدى العابثين والمفسدين وتشجيع العاملين والمجتهدين. إذا استحضرنا ذلك فى أذهاننا استطعنا أن نقرر أن هذا النص قد خول للنساء حق الاشتراك فى كل ماصغر وكبر من شئون الجماعة، مادام المقصود من هذا الاشتراك هو النفع العام للفرد والجماعة فى شئون الدين والدنيا . فلا عجب اذا رأينا المسلمات الأول يباشرن هذه الحقوق فلا يهبن فى الحق كبيرا أو صغيرا ، ويبسطن أراءهن فى صراحة وقوة، ويتصدين للمسائل العامة يشتركن فى حلها و إبداء الرأى فيها. فمن ذلك أن عمر بن الخطاب عند ما دعا فى خلافته الى عدم المغالاة فى المهور ، وأنكر على الرجال إسرافهم فى إمهار النساء وحظر عليهم أن يزيدوا المهر عن ٤٠٠ درهم اعترضته امرأة وعارضته بقولها : وماذا تقول فى قول القرآن ﴿ وآتيتم إحداهن قنطارا

والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض

المسلمات يأمرن المعروف

---

١) آية ٧١ سورة التوبة .

فلا تأخذوا منه شيئا ﴾[1] فلم يسع عمر إلا أن يصدع بحجة المرأة من أن القرآن قد تحدث عن المهر بأوسع الصور، فاعترف بخطئه وقال قولته المشهورة : امرأة أصابت وأخطأ عمر . ثم بادر باعتلاء المنبر وأعلن رجوعه فيما أصدره من قرار خاص بالمهور.

امرأة تقترح على الرسول بناء المنبر

وكان إقامة المنبر فى المسجد من اقتراح امرأة مسلمة فقد روى عن جابر أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يخطب إلى جذع فقالت له أمرأة : يا رسول الله ألا أجعل لك شيئا تقعد عليه فان لى غلاما نجار قال : " إن شئت " فعملت المنبر[2] .

ولعل أروع مثال حفظه لنا التاريخ عن مدى أشتراك المرأة فى صدر الاسلام فى الشئون العامة هو ما سجله خاصا بأم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها ؛ فقد تزعمت تزعما مباشرا الحركة المضادة لخلافة سيدنا علىّ، ونادت بوجوب خلع بيعته والخروج عليه ومحاربته، وأخذت نفسها بطلب الثأر من قتلة عثمان مهما عز جانبهم وكثر عددهم، ورأت رضى الله عنها أن فى ترك المطالبة بدم عثمان إهدارا لأحكام القرآن، وتقويضا لدعائم الاسلام، ونشرا للفتنة وتحريضا للغوغاء والرعاع على الفساد وإرهاب الخلفاء . وقد اضطلعت السيدة عائشة بهذه المهمة الخطيرة فقامت خطيبة فى حجر إسماعيل من الكعبة، على ما روى الطبرى بإسناده وأجمعت كتب التاريخ على تأييده . وكانت جهورية الصوت، فخطبت فى الناس ودعتهم الى خلع بيعة سيدنا على والالتفاف حولها للأخذ بثأر عثمان ؛ فسارع الى تلبية ندائها بنو أمية الذين وترهم مقتل عثمان، وأيدها قطبان من أقطاب الصحابة وهما طلحة والزبير، وكانا ممن عهد اليهم عمر عند مقتله بانتخاب الخليفة من بينهم . وليس وراء ذلك إعلاء من شأن مكانة السيدة عائشة وتحقيق لزعامتها . وبدأت السيدة عائشة ترسل مبعوثيها بالمكاتيب والرسائل الى أنحاء الدولة الاسلامية ، والى وجوه الصحابة والمسلمين تدعوهم الى شدّ أزرها فيما نهضت من أجله . وكانت السيدة حفصة تؤازرها فى مسعاها فى بادئ الأمر، وسارت معها بالفعل من مكة قاصدة العراق ؛ ولكن

السيدة عائشة تطلب بثأر عثمان وتخلع سيدنا على

تأييد طلحة والزبير للسيدة عائشة

---

(١) آية ٢٠ سورة النساء . (٢) رواه الثلاثة .

ابن عمر حال بينها وبين المضى فى طريقها فانحاز بها الى المدينة . وأما السيدة عائشة فقد سارت فى الشوط حتى نهايته ، الى أن كانت موقعة الجمل الشهيرة التى تزعمتها ، وكان القتال يجرى حول جملها وبارشادها وتوجيهها . وقد[1] كان هذا المسلك من السيدة عائشة مثار بعض الاعتراضات من أقوام هالهم أن يروا زوجة النبى المفضلة تزج بنفسها فى هذا المعترك الحزبى ؛ فلما سألها هذا البعض عن سبب خروجها معترضين منكرين أجابتهن فى شجاعة وقوة وفصاحة : « خرجت فى المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم وما فيه الناس وراءنا وما ينبغى لهم أن يأتوا فى إصلاح هذا الأمر ، وقرأت ﴿ لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس[2] ﴾ ثم قالت : فنحن ننهض فى الاصلاح ممن أمر الله عز وجل وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الصغير والكبير والذكر والأنثى فهذا شأننا إلى معروف نأمركم به ونحضكم عليه ومنكر نهاكم عنه ونحثكم على تغييره[3] » . ولسنا الآن بصدد الحكم على رأى السيدة عائشة فى سيدنا علىّ وهل نوافق ، على مسلكها ضده أو نخالفها فيه ، وإنما نحن فى مقام التسجيل وتقرير المبادئ . فهذه السيدة عائشة التى شهد لها كبار الصحابة بالعلم ورجاحة العقل ، وجلسوا منها مجلس التلميذ . هذه السيدة عائشة ، وهى أعلم الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم وأقربهن إلى قلبه وأكثرهم إدراكا لمراميه ومقاصده ، قد تزعمت حركة سياسية من أخطر الحركات فى تاريخ المسلمين ؛ فلم يكن يبرم أمر إلا بعد رأيها أو يبدأ قتال إلا بعد إذنها ، وكانت المراسيم والمراسلات تصدر إلى كل مكان حاملة اسمها ، وكانت هى دون غيرها من تعين الأمام الذى يصلى بالناس ؛ فقد حدث الطبرى قال : « فخرجت عائشة ومعها طلحة والزبير وأمرت على الصلاة عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد فكان يصلى بهم فى الطريق وبالبصرة حتى قتل ؛ فأمرت عائشة عبد الله بن الزبير على الصلاة فى البصرة » .

رأى السيدة عائشة فى وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

السيدة عائشة تعين الامام للصلاة

---

(١) راجع هذه الحوادث بالتفصيل فى الطبرى جـ ٣ ص ٤٦٨ طبعة مصطفى محمد .

(٢) آية ١١٤ سورة النساء .

(٣) الطبرى جـ ٣ ص ٤٧٩

ويحنو للكثيرين من المتعصبين ضد المرأة فى الوقت الحاضر أن ينتقدوا موقف السيدة عائشة فى خفة ورعونة ، وفات هؤلاء أنهم ينتقدون زوجة النبى المفضلة فى الدنيا والآخرة ، والتى كان الوحى ينزل على الرسول وهو فى فراشها ، والتى قال عنها رسول الله : " خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء " .

ولم تكن السيدة عائشة هى المرأة الأولى والأخيرة فى الإسلام التى اضطلعت بأخطر الأدوار فى حياة المسلمين ، بل اشتهر من نساء المسلمين زوجات ملوك شاركن أزواجهن فى تحمل أعباء الملك فى حياتهم ، وانفردن به بعد موتهم على سبيل الوصاية على أولادهن الصغار ، فنجحن نجاحا سجله التاريخ وشهدن به . وحسبنا أن نشير إلى اسم السيدة زبيدة التى لا تزال آثار إصلاحها وتعميرها فى الحجاز حتى اليوم ، حيث تجرى المياه باسمها وعلى ذكراها ، ولم يكن ذلك إلا بعض أعمالها فى مختلف أنحاء الدولة . وكذلك السيدة بوران زوجة المأمون التى اضطلعت بأعباء الملك بعد موته لصغر سن ولى العهد ، فأحسنت وأجادت وأنشأت المدارس والمستشفيات وحبست عليها الأموال ، وكانت تقابل الوفود والشعراء محفوفة بوزراء المملكة ووجهائها ؛ وغيرهن وغيرهن كثيرات . غير أننا لا نستطيع أن ندع هذا الموطن دون أن نذكر أعظم شهيرات الإسلام على الاطلاق فى العصور المتوسطة ، وأعنى بها شجرة الدر زوجة الملك الصالح ، تلك التى يقترن اسمها بموقف حاسم من مواقف التاريخ المصرى بل والتاريخ البشرى عامة ، حيث كان لحسن تدبيرها انقاذ مصر من الوقوع فى يد الصليبيين وأصابتهم بالضربة القاضية التى أسر فيها ملك فرنسا لويس التاسع والتى لم يقم بعدها للصليبيين قائمة . وقد تقلدت الملك بشخصها بعد مقتل ابنها توران شاه ولقبت بملكة المسلمين ، ويقول عنها بن إياس فى تاريخه ماخلاصته : «فكانت شجرة الدر تاسع من تولى السلطنة بمصر من جماعة بنى أيوب : وساست الرعية فى أيامها أحسن سياسة ، وكانت تكتب على المراسيم بخطها والدة خليل ، وكان يخطب باسمها على منابر مصر» . ويحاول البعض دائما الغض من شأن شجرة الدر بدعوى أن الخليفة العباسى فى ذلك الزمان قد

زبيدة و بوران

شجرة الدر

كتب يعيب على المصريين تولية شئونهم لامرأة، ولكن هؤلاء يغيب عن بالهم أن هذا الخليفة العباسى لم يستطع بكل رجولته أن ينقذ الدولة الاسلامية التى كانت فى طريقها إلى الضياع نهائيا تحت أقدام الصليبيين من الغرب والتتار من الشرق، وأن شجرة الدر المرأة هى التى استطاعت بحكمتها أن تهيء السبيل للجيش المصرى ليضرب الصليبيين عند المنصورة ضربة قاضية .

وهكذا اضطلعت المرأة المسلمة بكل ما أهلتها قدرتها ورجاحة عقلها ؛ فقد قدّمنا من الأمثلة الثابتة ما يدل على أن المرأة كانت تقوم بوظيفة الإفتاء وهى من أخطر الوظائف التشريعية . وقد أفتى الامام أبو حنيفة بجواز ولاية المرأة للقضاء . وكانت أم الخليفة المقتدر بالفعل بمثابة رئيسة لمحكمة الاستئناف العليا ؛ فكانت تقدّم إليها الشكاوى وتحكم فى القضايا[1]، وليس بعد القضاء منصب أرقى أو أرفع فى الدولة كلها . حتى الأمامة فى الصلاة وهى أعلى مراتب العبادات، قد جاء من الأحاديث الصحيحة الثابتة ما يبيحها للمرأة بحيث تؤم الرجال والنساء، فقد حدّث عبد الرحمن ابن خلاد رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يزور أم ورقة فى بيتها فاستأذنته فى مؤذن فجعل لها مؤذنا وأمرها أن تؤم أهل دارها؛ قال عبد الرحمن : فأنا رأيت مؤذنها شيخا كبيرا[2] . ويرى صحة إمامة المرأة للرجال كثير من الأئمة من بينهم المزنى والطبرى وغيرهما .

أبو حنيفة يجيز تولى المرأة القضاء

إمامة المرأة فى الصلاة

المرأة وحق الانتخاب

وغنى عن البيان أننا وقد كشفنا الغطاء عن هذه الحقوق المقررة للمرأة فى الشريعة الإسلامية، فقد وجب أن يثبت بما لا يدع مجالا للشك أن الاسلام لم يحرم المرأة من أى حق خوّله للرجل؛ فاذا كان العصر الحديث قد حمل فى طياته ما يسمى الحقوق السياسية فلا ينبغى بحال أن تقصر هذه الحقوق على الرجل دون المرأة، وإلا كان فى ذلك

---

(١) مركز المرأة فى الاسلام لأمير السيد على . (٢) رواه أبو داود والحاكم وابن خزيمة وصححه .

إخلال بأحكام الاسلام وروحه التى لم تفرق فى الحقوق بين الرجل والمرأة فى أى ناحية من نواحى الحياة . وقد وجب أن نذكر أن حق الانتخاب فى عصرنا الحديث ليس آخر هذه الحقوق أو ماينبغى أن يكون آخر ما يفكر فى إعطائه لها .

فاذا أعطى الرجل حق الانتخاب فقد وجب أن تعطى المرأة هذا الحق على الفور وليس فى ذلك ما يدعو الى كل هذا الضجيج والاستنكار الذى يثار حول هذا الموضوع : فحق الانتخاب كما هو محدّد فى الدساتير هو حق دافع الضرائب فى الإشراف على انفاق ما يجبى ، منه وحقه فى توكيل من يتولى عنه فى تشريع القوانين التى تسن له وكلا ، الحقين هما من حقوق المرأة باعتبارها من دافعى الضرائب كالرجل ؛ سواء أكانت هذه الضرائب دينية كالزكاة أم وضعية كسائر الضرائب . والمرأة باعتبارها نصف المجتمع من حقها أن تقول رأيها فى كل شأن قد يكون فيه ضرر بالمجتمع بصفة عامة أو مساس بالنساء بصفة خاصة ؛ كما لو تعلق التشريع بالأسرة والأمومة والزواج والآداب العامة . وقد رأينا فيما تقدّم كيف دافعت امرأة عن حقوق النساء المكتسبة ضد تشريع سيدنا عمر المقترح ، وهو ما يمكن أن يحدث فى كل زمان ومكان .

فاذا هال أحد الناس هذا الأمر وظنه طفرة أو انقلابا فنحن نأسف له أشد الأسف ، ولكن تعاليم الإسلام ونصوص القرآن وسنة الرسول واضحة كل الوضوح فى تخويل المرأة كل ماللرجل من حقوق أدبية كانت أو مدنية أو مالية ، والحقوق السياسية ليست فى صيغتها إلا السبيل لحماية هذه الحقوق . ولم يستنكف رسول الله أن يبايع النساء كما بايع الرجال بعد فتح مكة .

وهاك نص البيعة كما وردت فى سورة الممتحنة : ﴿ يأيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم ﴾ .

وبهذه البيعة جلس الرسول بعد فتحه مكة يبايع النساء كما بايع الرجال، وما كان أغناه عن مبايعة النساء بعد أن دانت له رقاب الرجال وأخضعهن بقوة السيف والسلطان، ودانت لعقيدته وسلطانه جزيرة العرب . ولكن الرسول الذى جاء للبشر هاديا ومصلحا ومرشدا، والذى لم تكن المسألة عنده مسألة غلبة أو اقتدار وإنما مسألة عقيدة وتشريع لصالح البشر، أبى إلا أن يتلقى بيعة النساء بعد الفتح أسوة ببيعة الرجال، ومن طريف ما يروى فى موضوع مبايعة النساء حديث هند زوج أبى سفيان فى هذه البيعة ومحاورتها ومساجلتها للرسول التى حفظها التاريخ مما يشهد لهذه المرأة بقوة الشخصية والاقتدار . ومما رواه الإمام أحمد ويشعر أن البيعة كانت عامة فى النساء عمومها فى الرجال أن فاطمة بنت عتبة جاءت لتبايع الرسول (ص) فأخذ عليها " أن لا يشركن بالله شيئا ولا يزنين " فوضعت يدها على رأسها حياء، فأعجبه ما رأى منها فقالت عائشة : أقرى أيتها المرأة فوالله ما بايعنا إلا على هذا، قالت : نعم أذن ؛ فبايعها بالآية .

كيف بايعت هند الرسول

فاذا كان هذا هو فعل الرسول وهذه نصوص القرآن فمن التعسف والجهل بنصوص الدين حرمان المرأة من حق الانتخاب متى تهيأت لمباشرة ذلك الحق بالعلم والمعرفة . ويطيب لى أن أختم هذا الباب بالترحم على الشيخ رشيد رضا ذلك التلميذ النابه للشيخ محمد عبده إمام النهضة الإسلامية فى هذه البلاد، فلذلك الشيخ الجليل فضل إرشادى إلى حق المرأة بنص القرآن فى الاشتراك فى المسائل العامة حيث قال فى كتابه الوحى المحمدى : «كان بعض البشر يحتقرون المرأة فلا يعدونها أهلا للاشتراك مع الرجال فى المعابد الدينية والمحافل الأدبية، ولا فى غيرها من الأمور الاجتماعية والسياسية والإرشادات الإصلاحية، فنزل القرآن يصارحهم بقوله : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ فأثبت للمؤمنات الولاية المطلقة مع المؤمنين وتدخل فيها ولاية النصرة فى الحرب ولكن الشرع أسقط عنهن فريضة القتال » . وقال تعليقا على هذه الآية فى كتابه نداء الى الجنس

الاعتراف بفضل السيد رشيد رضا

(١) آية ٧١ سورة التوبة .

اللطيف) : « فأثبت الله للمؤمنات الولاية المطلقة مع المؤمنين ، فيدخل فيها ولاية الأخوة والمودة والتعاون المالى والاجتماعى وولاية النصرة الحربية والسياسية» .

الخلاصـــة

أنه لا يوجد نقل أو عقل يجعل من المرأة مخلوقا أدنى شأنا أو أقل مكانة من الرجل ؛ فالحياة تتألف منهما مجتمعين ، ويجب أن يمضيا فى الحياة شريكين متعاونين على قدم المساواة فى الحقوق العـامة سياسية كانت أو اجتماعية أو مالية ، وألا يحال بين المرأة و بين التماس أى فرع شاءت من فروع المعرفة ، أو مزاولة أى وظيفة من الوظائف أو مهنة من المهن التى يؤهلها لهـا استعدادها وقدرتها وتضطرها اليهـا ظروفها الخاصة أو ظروف المجتمع العامة ، كما لو قامت حرب عامة أو غير ذلك من الظروف والأحوال . وذلك كله على شريطة ألا يؤثر ذلك فى اعتبار وظيفـة المرأة الأساسية وهى أن تكون زوجة وأما وربة أسرة ؛ فهذه هى الوظيفة الطبيعية التى لاغنى للحياة عن قيام المرأة بها . وليس هناك أشرف للمرأة من أن تضطلع بالوظيفة التى انفردت بها من دون الرجال ، والتى لا تستقيم الحياة فضلا عن أن تقوم مدنية أوحضارة بغيرها . ولذلك فيجب أن يتجه هم المجتمع أول ما يتجـه نحو تهيئة السبيل لبناء الأسرة ودفع الرجال والنساء الى الزواج فالأنسال ؛ وأن يكون ذلك هو المهم الشاغل للأفراد رجالا أونساء ، فيعتبرون الزواج هو مستقرهم الطبيعى ، فيقدم الرجل عليه متى تهيأ استعداده له ، وتؤثره المرأة على أى عمل أو وظيفة تشتغل بها مهما علا قدر هذه الوظيفة وسمـا ، ويجب أن تتخلى المرأة عن كل وظيفة وعمـل إذا تعارضت مع واجباتهـا الزوجية والأمومية ، ومتى كان فى قدرة الزوج الذى اختارته أن يكفل حياتها وحياة أطفالها عن سعة واقتدار .

الفصل الثالث

بحث فى السفور والحجاب

ولن يكون البحث الذى سقناه فيما تقدم خاصا بمكانة المرأة كاملا إلا إذا أتممناه ببحث موضوع الحجاب والسفور، الذى طال فيه الجدل والنقاش من الناحية النظرية، وإن كانت الناحية العملية قد أصدرت حكمها فيه وفقا لما تقضى به طبائع الاشياء وما يتفق وسنة التطور والنشوء والارتقاء.

تلخيص الدين فى الحجاب

لقد أتى على المسلمين حين من الدهر — والمصريون من جملتهم — جعلهم يلخصون أحكام الدين الاسلامى ويقيمون بناءه على أساس المغالاة فى حجب المرأة والإسراف فى إبعادها عن كل مجال يظهر فيه الرجال، حتى جعلوها سجينة البيت وقعيدته، وسلبوها كل حق فى التفكير أو التعليم فضلا عن المساهمة فى أى عمل نافع والاشتراك فى أى مجال أدبى. وذلك كله بحجة الحجاب الذى جعلوه ركنا من أركان الاسلام، بل وأخطر أركان الاسلام طرا وأولاها بالمحافظة والمراعاة، حتى لتجد الرجل لا يرى حرجا فى الكف عن الصلاة والصوم متوانيا عن اداء فريضة الحج ساخرا بفريضة الزكاة، ولكنه يغالى فى حجب المرأة وحبسها فى البيت والتسلط عليها، ويرى ذلك آية تدينه وورعه وتقواه. ولعل هذا القلب للأوضاع كاف وحده لاظهار فساد الزعم أن التمسك بالحجاب هو من الدين؛ فالأسلام قد بنى على خمسة أركان، وليس حجب المرأة من بين هذه الأركان. فإذا جاءنا رجل يهمل الأركان الخمسة كلها ثم يدعى الأسلام بحجة تغاليه فى حجب المرأة، وجب أن نجرده على الفور من صفة الأسلام؛ بل وأن نجرده من الأسلام مرتين اذا كان ما يعنيه بحجاب المرأة هو التسلط عليها وإذلالها وسجنها فى عقر دارها، فإن ذلك ليس إلا رجعة للجاهلية الأولى قبل الأسلام تلك التى كان ينظر فيها الى المرأة كشىء من سقط المتاع أو كحيوان من الحيوانات،

وليست بإنسان راق له كل حقوق الانسان فى الكرامة والاعتبار والحرية وهو الأمر الذى جاء الإسلام بإصلاحه وانتشال المرأة من ويلاته .

لقد رأينا فيما سبق كيف خول الإسلام للمرأة جميع الحقوق التى خولها للرجل، ولم يجعل لرجل عليها من سلطان فى ادارة أحوالها والتصرف فيها بسائر أنواع التصرفات؛ فلست أعرف كيف يمكن التوفيق بين ذلك وبين حبس المرأة عن استعمال هذه الحقوق ومباشرتها . ترى هل يزعم الزاعمون بالحجاب أن الإسلام قد أخذ باليسار ما أعطاه باليمين؟ حاشا وكلا! قد تنزه الإسلام عن ذلك، فهو إذا أعطى حقا من الحقوق فهو يعطيه نصا وروحا وهو يريده ويقصده ولا يرى صلاحا للبشر إلا من خلال تطبيقه، فإذا ورثت بنت عن أبيها أو زوجها متجرا أو مزرعة أو عقارا فهى صاحبته وهى صاحبة الحق الأول فى إدارته والإشراف عليه . ومن شأن إدارة المرأة لأموالها أن ترى فى الحقل وأن ترى فى السوق، وأن ترى فى المصنع وأن ترى فى المتجر، وأن توقع عقودا وأن تسلم نقودا وأن تتسلمها وأن تودعها البنك وتقبضها من البنك، وأن تتعامل مع عشرات من الناس ومئين وألوف فى بعض الأحيان وأن تشهد عقودا، وهو ما نص عليه القرآن صراحة : ﴿ وآستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وآمرأتان[1] ﴾ . وهذا قاطع فى إشراك المرأة فى المعاملات والأخذ بشهادتها وأن تستشهد بالشهود، وأن تستعين بالسلطات للحافظة على أمنها وسلامتها ، وأن تلجأ الى القضاء لحماية حقوقها؛ فلو أن إنسانا ما حال بين المرأة وبين مزاولة أى حق من هذه الحقوق ألا يكون قد هدم نصوص الاسلام وأحكامه . ولو أن إنسانا حال بين أن ترتاد المسجد لصلاة الجماعة مع الرجال، أو أن تشهد صلاة الجمعة والعيدين ألا يكون بذلك معطلا لشعائر الدين، سالبا حق المرأة حق شهود الجماعة، مخالفا أمر رسول الله الصريح فى وجوب الإذن للنساء بالذهاب الى المساجد حتى ولو كان ذلك فى الليل . ولقد رأينا كيف أباح الإسلام للمرأة بل وندبها ندبا الى الذهاب الى ميادين القتال لمداواة الجرحى وإرواء العطشى ومساعدة الرجال، وهو ما كان

استحالة مباشرة المرأة لحقوقها مع الحجاب

فاستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان

(١) آية ٢٨٢ من سورة البقرة .

الأوربيون يحرمونه على النساء تحريما قاطعا الى خمسين سنة ماضية، الى أن كانت الممرضة الشهيرة "نيتنجيل" التى اشترعت هذا الحق اشتراعا فى حرب القرم بعد اضطهادات شديدة جعلت منها شهيدة وقديسة .

وقد رأينا الاسلام يفتح المجال أمام المرأة للتعلم حسبما وسعتها قدرتها وشاء لها ذكاؤها ورجاحة عقلها، بل ويفرضه عليها فرضا . وأخيرا رأيناه كيف خول للنساء حق المبايعة وحق الولاية على المؤمنين فى الدعوة الى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فكيف يجوز لرجل بعد ذلك أن يحرم امرأة ما من مباشرة أى حق من هذه الحقوق . يقول دعاة الحجاب نحن لا نعارض أو ننكر حق المرأة فى كل ما ترك لها الدين، فلها أن تروح وتجىء وتقضى حاجاتها وكل ما تحتمه عليها الضرورات، ولكن على شريطة أن تكون فى ذلك كله محجوبة الوجه غير سافرة، وأن تظل بمعزل عن الرجال، فلا تخاطبهم إلا من وراء حجاب حتى لا تقع عليها العيون أو تدركها الأبصار. وذلك لا يعدو أن يكون ضربا من ضروب السفسطة، إذ هو المطالبة بالمستحيل أو هو المقصود بقول الشاعر :

ألقاه فى اليم مكتوفا وقال له * إياك إياك أن تبتل بالماء

فكيف تزاول المرأة حقوقها فى إدارة أموالها إذا لم تكن سافرة الوجه، ليعرف من عليه الحق أنه يؤديه لصاحبته دون غيرها، وليعرف صاحب الحق أنها غريمته المطالبة بأداء التزاماتها . كيف تؤدى المرأة هذه شهادة أمام القضاء ما لم تكن سافرة عن وجهها، لتبين حجتها وليعرف أنها المقصودة بالاستشهاد عليها أو الشهادة لها . ولست أعرف كيف لم يسائل أصحاب نظريات الحجاب أنفسهم عن السر فى أن الإسلام قد أجاز للمرأة أن تسفر عن وجهها إن هى أحرمت للصلاة أو الحج .

عدم جواز الحج مع حجب الوجه

ألا يعتبر ذلك تكليفا غريبا من دين يزعم الزاعمون أن الحجاب من أساسه وجوهره، أما كان الأولى أن يحتم الدين النقاب على المرأة فى الصلاة والحج تحتيما منعا للفتنة فى مواطن العبادة، وتغليظا على المرأة فى وجوب ستر وجهها ذلك هو ما كان يقضى به المنطق لو أن الدين كان يرى حجاب المرأة ركنا من أركانه. فكيف والدين يأمر بالسفور

أمرا وخاصة فى الحج؛ لما رواه ابن عمر من أن النبيّ صلى الله عليه وسلم «نهى النساء فى إحرامهن عن القفازين والنقاب» . بل أن سنة الحج المؤكدة المتواترة التى يجرى عليها النساء منذ عصر النبى الى اليوم هى الاحرام بالاسفار عن وجوههن وأيديهن . فإذا علمت أن أداء فريضة الحج فى العصر الحديث تستلزم بضعة أسابيع حتى بعد اختراع الطائرة والسيارة، وأنها كانت تستلزم فى القديم شهورا إن لم يكن أكثر من ذلك، وإذا علمت أنه لا يوجد موطن من مواطن الاجتماع فى حياة البشر يختلط فيه الرجال بالنساء إختلاطهما فى مواطن الحج حيث يشهدون مواقف معينة، ويبيتون فى بقاع مقررة بغير ستر منصوب بين جار وجاره إذ لا وقت يتسع لذلك؛ كالمبيت فى المزدلفة . ولو رأيتهم وهم يتزاحمون بالمناكب ويحتكون ويختلطون فى منى إبان رمى الجمرات وقد ضاق بهم المكان والتحمت الأجساد، بل لو رأيتهم وهم يطوفون حول الكعبة وكأنهم كتلة بشرية واحدة وقد اندس فيهم الفاجر الذى لا يرعى لله حرمة ولا يتورع عن السرقة وارتكاب أشنع الجرائم . ولو رأيتهم قبل ذلك وبعد ذلك وهم يجتازون الصحارى المقفرة فى الليالى المقمرة، وقد طاب النسيم وسكن الليل ورقت القلوب وفاضت العواطف، لو رأيت شيئا من ذلك كله أو بعضه لاقتنعت وتأكدت أن الإسلام لو كان بمستوجب الحجاب فى موطن لوجب أن يكون الحج هو هذا الموطن، حيث يبلغ الاختلاط أشده، ويختلط الحابل بالنابل والشرير بالخير؛ ومع ذلك فقد قضت سنة أبى القاسم أن لا يكون حج للنساء إلا محرمات ولا إحرام للنساء إلا بالكشف عن الوجه والكفين، وكان ذلك فى حجة الوداع حيث اختتم القرآن آخر آياته ولم يعد بعد ذلك وحى يوحى أو قرآن يزاد : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾[1] .

اليوم أكملت لكم دينكم ...

رب قائل يقول : ولكن ذلك موطن من مواطن العبادات حيث تفتر فيه الشهوات وتعظم الحرمات ويشتغل الناس فيه بعبادة ربهم . وإنه لحق أن فى الحج لحظات يستغرق فيها التوجه الى الله كل حواس الناس ولكن من الحق أيضا أن

(١) آية ٣ سورة المائدة .

فى أسابيع الحج فترات طويلة يقضيها الناس فى فراغ حيث تنطلق غرائزهم من جديد، وتتضاعف رغبتهم فى المرأة بأشد ما تملكهم فى يوم من الأيام. وليس أدل على ذلك من أن الرسول قد ندب المحرمين بالحج الى التحلل من إحرامهم بعد العمرة والتمتع ريثما يحين أوان الحج على الرغم، من أن قريشا كانت ترى فى ذلك أفجر الفجور فى الجاهلية كما حدث بذلك ابن عباس من أن قريشا ومن دان دينهم كانوا يرون أن العمرة فى أشهر الحج من أفجر الفجور فى الأرض ... فقدم النبى وأصحابه صبيحة رابعة مهلين بالحج فأمرهم أن يجعلوها عمرة فتعاظم ذلك عندهم : فقالوا يا رسول الله، أى الحل قال : "الحل كله"[1]. فالرسول الذى يعرف من حالة البشر ما دق وخفى، وجد من الخير للمسلمين ألا يحرم عليهم مقاربة النساء طوال المدة اللازمة للذهاب الى الكعبة بقصد الحج والرجوع منها، وهى ما قد تستغرق بضعة أشهر كما قدمنا.

أمر الرسول للمسلمين بالتمتع فى انتظار ميعاد الحج

فليس يجوز لقائل إذن الزعم بأن أعمال الحج مهما طالت من شأنها أن تصرف الرجل عن الرغبة فى النساء، فالرغبة غريزة دائمة فى نفس الرجل اذا اختفت ساعات أو أياما فلا تلبث أن تشتعل أشد قوة وعنفا مما كانت، فموطن الفتنة فى الحج قائم إذن. وكان المنطق يقضى بحجب وجوه النساء فى الحج لو أن فى ذلك ما يقلل خطر الفتنة وشدتها، وهو ما لم يأمر به الرسول بل أمر بعكسه وهو كشف الوجه، ولعل فى حديث الخثعمية الشهير شاهدا قويا على عدم انكار الرسول على المرأة سفورها فى الحج، حتى ولو خشى الفتنة فى هذا السفور.

وحديث الخثعمية هو ما رواه ابن عباس من أن امرأة من خثعم جاءت فى حجة الوداع تسأل النبى صلى الله عليه وسلم عما اذا كان يجوز لها أن تحج نيابة عن أبيها الضعيف، وكانت امرأة جميلة الوجه، وكان الفضل بن العباس يركب فى ذلك اليوم خلف رسول الله على ناقته، فجعل ينظر الى المرأة وتنظر اليه، فجعل رسول الله يصرف وجه الفضل الى الشق الآخر. وفى بعض الفاظه : فلوى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنق الفضل، فقال له العباس : يا رسول الله، لماذا لويت عنق

حديث الخثعمية

(١) رواه الثلاثة.

ابن عمك؟ فقال صلى الله عليه وسلم : "رأيت شابا وشابة فلم آمن الشيطان عليهما" وفى رواية "فلم آمن عليهما الفتنة"[1]. فهذا رسول الله صلوات الله عليه لا يأمن على رديفه فى ذلك اليوم من الفتنة، ومع ذلك فلم ينكر على المرأة سفورها ولم يطلب منها حجب وجهها ، وكان كل ما عمله هو أن صرف نظر الفضل عنها لما لاحظه عليه من اشتغاله بجمالها وعدم غضه بصره عنها . بل أن ما يجب أن يذكر ويفوق كل ما تقدم هو أن هذه الخثعمية لم تكن تحج عن نفسها وإنما كانت تحج عن أبيها الشيخ الذى لايستقر على الراحلة فصدق الرسول على حجها؛ فعرف من ذلك أن للمرأة أن تحج نيابة عن قريبها الرجل . فأين هذا الشرع الإسلامى من رجال يظنون أن الدين كل الدين فى حبس النساء فى البيوت والمنازل، على أن نصا من نصوص القرآن قد أغنانا مؤونة البحث والاجتهاد ، وذلك لنصاعته ووضوحه وصراحته ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهنّ ويحفظن فروجهنّ ولا يبدين زينتهنّ إلا ماظهر منها وليضربن بخمرهنّ على جيوبهنّ ولا يبدين زينتهنّ إلا لبعولتهنّ أو آبائهنّ أو آباء بعولتهنّ ... ﴾ الآية[2] .

قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم

وهذا نص صريح فى عدم فرض الحجاب على المرأة من ثلاثة وجوه : الوجه الأول هو مطالبته المؤمنين والمؤمنات أن يغض كل منهما من بصره فلا يحملق للآخر ويمعن فى وجهه، ولو كانت النساء محجبات عن الرجال منتقبة الوجوه لما كان هناك محل لهذا الأمر؛ إذ لا داعى له ولا ضرورة ولكان من تحصيل الحاصل ، وحاشا أن يكون ذلك كلام القرآن . أما الوجه الثانى فقول الآية : ﴿ ولا يبدين زينتهنّ إلا ما ظهر منها ﴾ . وقد اتفق المفسرون والفقهاء على أن قوله ﴿ إلا ما ظهر منها ﴾ مقصود به الوجه . واختلفوا فيما اذا كانت هناك ضرورة تحتم ظهور الكفين، ولكنهم لم يختلفوا فى موضوع الوجه وأنه هو المقصود بالاستثناء . أما الوجه الثالث فى الآية

دلالة الآية على عدم فرضية الحجاب من ثلاثة أوجه

---

(١) الحديث بتمامه فى الصحيحين .

(٢) آية ٣٠ ، ٣١ سورة النور .

فقوله ﴿ وليضربن بخمرهنّ على جيوبهنّ ﴾ والجيوب هى فتحة الجلباب من ناحية الصدر ؛ فالمطلوب من النساء بنص القرآن هو حجب الصدور والأعناق لا الوجه المستثنى للضرورة .

ويفسر هذه الآية حديث أم سلمة من أن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها قد دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها وقال : " يا أسماء إن المرأة اذا بلغت المحيض لم يصلح لها أن يرى منها إلا هذا وهذا " وأشار الى وجهه وكفه .

حض النبى صلى الله عليه وسلم على النظر للمخطوبة

ولأصل الآن الى قمة الموضوع وذروته حيث نرى رسول الله يحث المسلمين حثا على النظر الى وجه من يعتزمون زواجها قبل الإقدام على الزواج ، ويلوم من تهاون فى ذلك أو تكاسل عنه وتقاعد ، وقرر أن ذلك شرط أساسى لنجاح الحياة الزوجية ودوامها ؛ فقد حدّثنا أبو هريرة عن رسول الله أنه بينما كان جالسا عند رسول الله فى أحد الأيام إذ أتاه رجل فأخبره أنه معتزم زواج امرأة من الأنصار ؛ فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : " آنظرت إليها " ؟ قال لا ؛ قال : " فاذهب فانظر إليها فان فى أعين الأنصار شيئا "[1] . وذكر المغيرة أنه خطب امرأة فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " آنظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما "[2] . وحدثنا جابر حديثا أشمل وأكمل من كل ما سبق لا يقف عن حد النظر الى الوجه بل والوقوف على كل مايحبب الرجل فى المرأة و يدعوه الى زواجها ، وذلك بقوله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر الى مايدعوه الى نكاحها فليفعل " فخطبت جارية فكنت أتخبأ لها حتى رأيت منها ما دعانى الى نكاحها فتزوجتها[3] .

اذهب فانظر اليها

« خطبت جارية فكنت أتخبأ لها...

---

(١) رواه مسلم والنسائى .
(٢) رواه النسائى والترمذى .
(٣) رواه أبو داود والشافعى والحاكم وصححه .

وأحسب أنه لم يبق بعد هذه الأحاديث المتكررة المتواترة من يشك فى أن هذا التهويل الذى سار عليه جماعة المسلمين المتأخرة فى المناداة بحجب المرأة عن أن تقع عليها عين أحد، ليس إلا ضربا من ضروب الجهل بأحكام الدين والتعصب الأعمى الذى يقوم على التقاليد الفاسدة، والذى يجعلهم يضيفون الى الدين ما هو براء منه .

الحجاب فى الاسلام خاص بنساء النبى

على أن دعاة الحجاب ليسوا الى هذا الحد فارغين من بعض النصوص والدعاوى التى يخيل لهم أنها تؤيد دعوتهم وتعزز شبهتهم فى فرض الحجاب على المرأة؛ فكلمة الحجاب قد وردت بالذات فى القرآن، وفرضت على فريق من النساء وهنّ نساء النبى وما فرض على نساء النبى فإن بقية النساء به أولى، لأنه اذا كان نساء النبى الطاهرات المبرآت الكريمات قد خشى عليهنّ من الفتنة وافتتان الناس بهن فكم بالأحرى يخشى على النساء الأخريات من شر هذه الفتنة ويخشى على الرجال منهنّ، وهذه هى الحجة الكبرى التى يحتجون بها؛ إذ يرون فى كل ما عمل الرسول قدوة وسنة يتأسون بها، وما رآه لأزواجه فيجب أن يراه كل مسلم لزوجته . وسنرى أن مناقشة قصيرة لهذا الموضوع تحوله من دليل بفرضية الحجاب على المرأة العادية الى دليل ضدّ هذه الفرضية.

ورد ذكر الحجاب فى القرآن فى الآية الآتية :

« يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى ... »

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستئنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحى منكم والله لا يستحى من الحق و إذا سألتموهن متاعا فاسألوهنّ من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيما[1] ﴾ .

تلك هى الآية الوحيدة التى وردت فى القرآن ومنها ذكر للحجاب . وظاهر أنها تتحدث عن بيوت النبى ونسائه ؛ فهى خصوصية من خصوصياته كما يدل على

(١) آية ٥٣ سورة الأحزاب .

ذلك سبب التنزيل، وكما يدل على ذلك صريح اللفظ فى آية أخرى سنذكرها فيما بعد. فأما سبب التنزيل فقد كان نساء النبي صلى الله عليه وسلم قبل نزول هذه الآية كسائر نساء المسلمين، يختلطن بالرجال ويتصل بهن من شاء فى أى وقت شاء، مقتحمين فى ذلك بيوت النبي فى كثير من الأحيان فى غير استئذان، وقد عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم وسط أقوام كان من بينهم من دخل الاسلام على كره ومن كان النفاق يعمر قلبه؛ فلا يدع وسيلة يستطيع بها ايذاء النبي وتجريحه وتلويث سمعة المسلمين إلا وانتهجها.

وكان الى جوار هؤلاء أقوام آخرون من الأعراب الأجلاف الغلاظ، الذين لا يعرفون شيئا من آداب الاجتماع أو التقاليد الحميدة؛ وكلا الفريقين كانا يؤذيان النبي ايذاء بليغا، كما يتجلى ذلك من مطالعة كثير من آيات القرآن، وكان المنافقون يتحذون زوجات النبي بصفة خاصة موضوعا للتقوّل على رسول الله والتشدق بمختلف الأراجيف؛ كما يدل على ذلك حديث الإفك الذى اتهموا فيه السيدة عائشة وهى المطهرة المبرأة وكان بعضهم كثيرا ما يشيع أنه معترم زواج بعض نساء النبي بعد وفاته وربما استغل سماحة الاسلام فدخل الى أحد بيوت النبي متظاهرا باستعارة شيء من الأشياء ليؤلف من ذلك بعد ذلك قصة طويلة عريضة تثير الظنون وتنشر الريب. ولقد توعد القرآن المنافقين بالطرد من المدينة إن هم استمروا على غوايتهم ﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ﴾[1]. ولكن ذلك لم يحسم البلاء، وظل أذى المنافقين والأعراب مستمرا للرسول فى نسائه. وقد هال سيدنا عمر بن الخطاب ذلك الأمر فرأى ضرورة الحيلولة دون اتصال كائن من كان بنساء النبي فألح على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام بحجبهن عن الرجال بقوله: يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب[2]. ولكن سيدنا محمد لم يجبه الى اقتراحه على

كيد المنافقين وحديث الافك

سيدنا عمر يقترح حجب النبي لنسائه

---

(١) آية ٦٠ سورة الأحزاب.

(٢) من حديث أنس رواه البخارى.

الفور، الى أن كان حادث مباشر أدى الى نزول هذه الآية مصدّقة لاقتراح سيدنا عمر، وفارضة الحجاب على نساء النبي .

السبب المباشر لنزول آية الحجاب

وهذا الحادث على ما رواه أئمة الحديث والمفسرون يتلخص فى أن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لما تزوج زينب رضى الله عنها دعا القوم لوليمة الزواج؛ فطعموا ثم جلسوا يتحدّثون، فتظاهر الرسول بأنه يهم بالقيام لينصرف القوم فلم يقوموا؛ فلما رأى ذلك منهم قام عنهم الى بعض بيوته الأخرى، فقام فى أثره من قام ماخلا ثلاثة نفر جلسوا يتحدّثون، حتى اذا عاد النبي صلى الله عليه وسلم ليدخل الى زوجته وجدهم لا يزالون جلوسا يتسامرون؛ فاضطر النبي للرجوع من حيث أتى وهو مستاء لذلك أشدّ الاستياء، ولكن حياءه حال بينه وبين دعوتهم الى الانصراف؛ فظل القوم جلوسا ردحا طويلا من الزمان حتى عنّ لهم الانصراف أخيرا فانصرفوا، فأسرع أنس الى رسول الله وأعلمه بنبأ ذهابهن؛ فجاء الرسول ودخل بيته فحاول أنس أن يدخل خلفه جريا على عادته ليقوم بخدمته، فألقى النبي الحجاب بينه وبين أنس، وأنزل الله آية الحجاب التى تتضمن فى سياقها الاشارة الى هذا الحادث .

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فاذا طعمتم فانتشروا ولا مستئنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذى النبي فيستحى منكم والله لا يستحى من الحق وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيما[1] ﴾ .

وظاهر من هذه الآية وسبب نزولها أن الحجاب لم يشرع كما يزعم الزاعمون من أعداء الاسلام وجهلة المسلمين لضعف ثقة الرسول بنسائه بصفة عامة، وما قد يتعرضن له من الفتنة لرؤيتهن الرجال بحيث يصبح ذلك قاعدة مضطردة بالنسبة للنساء؛ وإنما شرع الحجاب كما رأينا اتقاء لشرور هؤلاء المنافقين والأعراب الاجلاف الذين كانوا لا يرعون لبيوت الرسول كرامة أو حرمة؛ فيقتحمونها فى غير حياء ويطيلون

(١) آية ٥٣ سورة الأحزاب .

الحجاب لنساء النبي واجب لمكانة الرسول من الأمة وتكريما له

المكث بها فى غير حضرة رسول الله، ولا يقيمون لمشاعر الرسول وزنا ولا يؤدون لمكانته حقها من الاعتبار. وذلك كله على خلاف أبسط قواعد الذوق واللياقة التى تقتضيها حالة الاجتماع والعمران، فكان لابد من وضع حدّ لهذا الايذاء والحيلولة بين المنافقين وبين التقول على نساء النبى وبيوته؛ فكانت آية الحجاب تعلم المسلمين ما ينبغى عليهم من الاحترام لنبيهم، وما يجب أن يحاط به نساؤه من التجلة والاعتبار، فلا يراهن كل من هب ودب، ولا يتحكك بهنّ لغير سبب أى إنسان.

يا نساء النبي لستن كأحد من النساء

فالآية خصوصية من خصوصيات النبى الخاصة بشخصه وعصره وظروفه ومكانة نسائه ﴿ يا نساء النبي لستن كأحد من النساء[1] ﴾ فلا يجب أن يساء تأويلها، فتحول الجزء الخاص منها بحجب نساء النبى الى قاعدة عامة لتسرى فى كل زمان ومكان، وأن تتخذ ذريعة لإساءة الظن بالنساء وأن لاسبيل لصلاحهنّ إلا بالتدارى خلف الحجاب. على أن ختام الآية نفسه يدل على تضمنها أحكاما خاصة بنساء النبى لا يصح تطبيقها على غيرهنّ من النساء وذلك حيث يقول: ﴿ وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيما[2] ﴾ فحظر الزواج بنساء النبى بعد موته، وهو خصوصية أخرى من نوع خصوصية الحجاب؛ لأن الاحترام الواجب نحو مكانة الرسول تقتضى جعل نسائه حرما على بقية المسلمين بعد موته، وهى من الأمور المجمع على أن لا تكون محلا للقياس والسير على هديها، كاختصاص النبى بالزواج بأكثر من أربعة، فهى خصوصية ثالثة قد اختص بها من دون المسلمين.

الحجاب كما فسره الرسول بالنسبة بأزواجه

بقى أن نعرف مدى هذا الحجاب الذى فرض على نساء النبى بمقتضى هذه الآية، وكيف فسره الرسول صلى الله عليه وسلم وفسره نساؤه من بعده؛ هل كان مؤداه أن أصبح زوجات الرسول سجينات لايخرجهن من بيوتهن كما يتوهم البعض، أو هل حرمهن مما كن يتمتعن به من قبل من مشاركة بقية المسلمين فى أعيادهم وأفراحهم

(١) آية ٣٢ سورة الأحزاب. (٢) آية ٥٣ سورة الأحزاب.

ونشاطهم ومناسكهم والقيام بحاجاتهم . لقد حدّثتنا السيدة عائشة ببعض أحاديث توضح لنا هذا الموضوع وتجلى غامضه فقالت لنا فيما قالت : « إن السيدة سودة بنت زمعة خرجت ليلا فرآها عمر فعرفها فقال : إنك والله يا سودة ما تخفين علينا ؛ فرجعت الى النبي صلى الله عليه وسلم غاضبة وهو فى حجرتى يتعشى ؛ فذكرت ذلك له وإن فى يده لعرقا[1] فأنزل عليه — أى جاءه الوحى — فرفع عنه وهو يقول : "أذن لكن أن تخرجن لحوائجكن"[2] فذلك سيدنا عمر — وهو من تعرف حماسته للحجاب وتحريضا عليه — ظن أن آيات الحجاب وما يكملها من الأمر بالاستقرار فى البيوت ﴿وقرن فى بيوتكن﴾ معناه حظر الخروج على زوجات النبي لأى سبب من الأسباب ؛ فانكر على سودة خروجها ، فأدرك الرسول ما فى اعتراض عمر من حرج على نسائه و إعنات لهن وما فيه من مخالفة لضرورات الحياة ومقتضياتها ؛ فأباح لزوجاته الخروج لحوائجهن إباحة تامة مطلقة من كل قيد أو شرط ، ولولا ذلك لحوّل نساءه الى سجينات ، وما كان الرسول ليفعل ذلك وهو الذى حرّر نساء العالمين .

أذن لكن أن تخرجن لحوائجكن

وحدّثتنا السيدة عائشة فيما حدثت — على ما رواه البخارى ومسلم والنسائى — أنه كان يوم عيد يلعب السودان بالدرق والحراب فإما سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم و إما قال "تشتهين تنظرين" فقلت نعم . فأقامنى و راءه خدى على خده وهو يقول دونكم يا بنى أرفده حتى إذا مللت قال "حسبك" قلت نعم . قال "فاذهبي" وحدّثتنا السيدة عائشة — على ما رواه البخارى أيضا — أنها زفت امرأة الى رجل من الأنصار فقال نبى الله صلى الله عليه وسلم : "يا عائشة ما كان معكم لهو فإن الأنصار يعجبهم اللهو" . وفى رواية أخرى أنه قال لها : "هل لقيتم جارية تضرب بالدف وتغنى"؟ قالت : ماذا تقول يا رسول الله؟ قال : تقول .

السيدة عائشة تشهد رقصة السودان

أتيناكم أتيناكم * فحيانا نحييكم
ولولا الذهب الأحـ * ـمر ما حلت بواديكم
ولولا الحنطة السمرا * ء ما سمنت عذاريكم[3]

(١) العرق (بفتح العين وسكون الراء) : العظم أخذ عنه معظم اللحم . رواه الشيخان .
(٢) (٣) هذه الأبيات ذكرت فى بعض المصادر باختلاف .

اصطحاب الرسول لزوجاته فى السفر

وكان من عادة الرسول صلوات الله وسلامه عليه قبل نزول آيات الحجاب أن يصطحب إحدى زوجاته كلما سافر، وكان يختار هذه الزوجة بالاقتراع؛ فظل الرسول على عادته بعد نزول آية الحجاب فى آصطحاب زوجاته. وظلت نساء النبى تخرج لقضاء حوائجها كلما أرادت. وظلت نساء النبى تضطلع بوظيفتها الروحية الكبرى فى زعامة نساء عصرهن، حتى إذا مات الرسول صلوات الله وسلامه عليه تحوّلن الى معلمات للأمة رجالا ونساء، يستشرن ويستفتين فى مختلف الأمور ويساهمن فى الشئون العامة؛ كما رأينا من موقف السيدة عائشة فى خروجها على سيدنا على فى الوقت الذى كانت السيدة أم سلمة تؤازر سيدنا على وتناصره.

وجملة القول أن الحجاب الذى فرض على نساء النبى لم يكن المقصود منه إلا مضاعفة التكريم لشخصية رسول الله. ولم يكن بحال من الأحوال كما يطبقه بعض الجهال من عامة المسلمين حيث يقسمون لك فى افتخار واعتزاز: أن زوجاتهم لا تخرج من البيت إلا مرة واحدة، ولا تخرج هذه المرة إلا محمولة على الأعناق لقبرها، ويحسب نفسه بذلك متدينا فاضلا، وهو ليس إلا مستبدا قاسيا، قد حوّل آمرأته الى عبد رقيق، بل الى ما هو أخس من الرقيق، حوّلها الى حيوان سجين.

رأى الشيخ رشيد رضا فى الحجاب

يقول المرحوم الشيخ رشيد رضا: «وكل ما استحدثه الناس فى المدن والقرى الكبيرة من المبالغة فى حجب النساء فهو من باب سدّ الذريعة لا من أصول الشريعة؛ فقد أجمع المسلمون على شرعية صلاة النساء فى المساجد مكشوفات الوجوه والكفين، وأجمعوا على إحرام النساء بالحج والعمرة كذلك. نعم! إنهن كن يصلين الجماعة وراء الرجال ولكنهن كن يسافرن مع الرجال محرمات ويطفن بالبيت كذلك، ويقفن فى عرفات ويرمين الجمار على مشهد من الرجال فى عهد النبى (ص) وخلفائه الراشدين. وكن يسافرن مع الرجال الى الجهاد، ويخدمن الجرحى ويسقينهم الماء، ومنهن نساء النبى (ص) كما تقدّم. وقد قاتل نساء المهاجرين مع الرجال فى واقعة اليرموك، وكن يخدمن الضيوف ويقاضين الرجال الى الخلفاء والحكام...». ثم استمر الاستاذ الكبير

يناقش الموضوع على هذا النسق فيما لا يخرج عن ما قدّمناه من شواهد وأحاديث، الى أن ختم بحثه بقوله : —

« وجملة القول، أن أصل الشرع فى آداب النساء والرجال معروف، وأن سد ذرائع الفساد والفتنة مشروع، وهو يختلف باختلاف الأعصار . والأمصار وإنما الحرام ما ثبت بنص قطعى الرواية والدلالة . وما دل على طلب تركه دليل ظنى فهو مكروه . وكل رجل وامرأة أعلم بحال نفسه ونيته وحال قومه وبيئته . والقاعدة العامة فى مثل هذا قوله صلى الله عليه وسلم "الحلال ما أحل الله فى كتابه والحرام ما حرم الله فى كتابه وما سكت عنه فهو مما عفا عنه"[1] . وظاهر من هذا القول أن الشيخ الكبير رحمه الله ممن ينكرون على القائلين بأن الحجاب من أصول الدين، وأن القول بذلك هو خلط وتشويه لأحكام الدين، وتحريم لما أحل الله بغير نص من القرآن والسنة . ولست أجد ما هو حقيق بأن أختم به هذا البحث الدينى إلا أن أسوق رأيا لإمام من أئمة الحنابلة وهو الشيخ شمس الدين الحنبلى حيث تساءل فى كتابه (الآداب الشرعية) عما اذا كان يسوغ الانكار على النساء الأجانب اللاتى يكشفن وجوههن فى الطريق من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؟ وبعد أن بحث هذا الموضوع من جميع نواحيه انتهى بالاجابة على هذا التساؤل بالنفى بقوله : « فأما على قولنا وقول جماعة من الشافعية وغيرهم من أن النظر الى الأجنبية جائز بغير شهوة ولا خلوة فلا ينبغى أن يسوغ الانكار[2] » . أى أن سفور المرأة لا يمكن أن يكون من المسائل التى يجوز لكائن من كان أن ينكرها على المرأة، متحككا باسم الدين وتعاليمه .

رأى الشيخ شمس الدين الحنبلى

هل الحجاب مانع للفتنة

بقى ما يقال من أن شرعة الحجاب وان لم تكن من أصول الدين كما يسلم الجميع فهى من باب سد الذريعة، أى اتقاء الفتنة وإيقاف شرها، ففى الإسفار عن وجوه النساء اشعال لنار الفتنة بين الرجل والمرأة، وفى حجبها اتقاء لهذه الفتنة ودفع لأذاها .

---

(١) رواه الترمذى وابن ماجه .

(٢) كتاب الآداب الشرعية الجزء الأول ص ٣١٦

والقول بذلك جهل بسنة الطبيعة فى فتنة المـرأة للرجل والرجل للمرأة، وهو مغالطة للواقع وما أثبتته تجربة القرون الماضية؛ ففتنة المرأة للرجل ليست فى وجهها ولكن فى طبيعتها. أى فى أنوثتها، فالرجل ينجذب نحو المرأة بغريزته لمحض كونها امرأة؛ فلو حجبت وجهها لتحولت فتنتها الى صوتها؛ ولأحدث صـوتها فى نفس الرجل كل ما تحدثه صورتها * والأذن تعشق قبل العين أحيانا * ولو أمسكت عن الكلام لأصبحت فتنتهـا فى مشيتها وخطراتها وحركات أعضائها ﴿ ولا يضربن بأرجلهنّ ليعلم ما يخفين من زينتهنّ[1] ﴾ ولو كفت عن الظهور أمام الأعين لأصبحت الفتنة فى نافذة بيتها وفى ضوء مصباحها وفى خادمتها الصغيرة وفى هودجها قديما وسيارتها فى عهدنا. فلا سبيل اذن لاتقاء الفتنة بين الرجل والمرأة بالحواجز الطبيعية أو المـادّية؛ فالطبيعة قاهرة، غلابة. ولا يمكن أن تقاوم بالوسائل المـادّية بل ان هذه الوسائل المـادّية كلما حاولت أن تصدّ الطبيعة كلما زاد ذلك فى قوتها وعنفوانها، وكلما عملت على اتساع هذه الحواجز والسدود. وليس أدل على ذلك من أنه فى أشـدّ العصور استخداما للحجاب وتشدّدا فيـه لم يكف الرجال والكتاب والوعاظ عن الشكوى مرّ الشكوى من الحالة الخلقية وانتشار المفاسد والموبقات، حتى أن الانسان منا ليحمر خجلا وهو يطالع كتب الآداب القديمة؛ لمـاحوته من فضائح قديمة ومخازى لا تختلف فى شىء عما نسمع به فى أشدّ المجتمعات اباحية وانحلالا. وحسب الانسان أن يطالع كتاب (ألف ليلة) وهو تصوير دقيق لمـا كان يجرى ويقع فى هذه العصور ليرى ما تحمـر له الوجوه ... وها هى دواوين الشـعراء، وها هى كتب الأدب من ثلاثة عشر قرنا ولا موضـوع يدور حوله إلا الغـزل والنسيب والتشبب بالنساء، حتى أصبح التغزل بالنساء لازمة من لوازم الشعر العربى، فلا تفتتح قصيدة إلا به ولو كانت فى مدح بطل من الأبطال وملك من الملوك، بل حتى فى مقام الرثاء والنحيب على ميت من الأموات. ومع ذلك فقد كانت هذه القصائد تروى وتسمع فى حضرة

عدم انقطاع الشكوى من النساء على مر العصور

---

(١) آية ٣١ سورة النور.

الخلفاء فلا يعترضون عليها، والناس تتناقلها فى إعجاب وسرور. وأمامى الآن كتب دينية تحوى من النصوص والأوصاف بعض ما يقع فى عصرنا مما يندى له الجبين وما لا يمكن بحال من الأحوال أن يدعى أنه أفضل فى قليل أو كثير مما يجرى فى عصرنا الحاضر أن لم يكن أشدّ سوء أو شناعة فهذا الامام العلامة البدر العينى المتوفى فى القرن التاسع الهجرى يقول فى شرح صحيح البخارى تعليقا على شكوى السيدة عائشة مما أحدث النساء بعد رسول الله :

« لو شاهدت عائشة رضى الله تعالى عنها ما أحدث نساء هذا الزمان من أنواع البدع والمنكرات لكانت أشدّ إنكارا، ولا سيما نساء مصر، فان فيهنّ بدعا لا توصف ومنكرات لا تمنع؛ منها : ثيابهنّ من أنواع الحرير المنسوجة أطرافها من الذهب والمرصعة باللآلئ وأنواع الجواهر، وما على رءوسهنّ من الأقراص المذهبة المرصعة باللآلئ والجواهر الثمينة والمناديل الحرير المنسوج بالذهب والفضة الممدودة وقمصانهنّ من أنواع الحرير الواسعة الأكمام جدا، السابلة أذيالها على الأرض مقدار أذرع كثيرة بحيث يمكن أن يجعل من قميص واحد ثلاث قمصان وأكثر. ومنها : مشيهنّ فى الأسواق فى ثياب فاخرة، وهنّ متبخترات متعطرات، مائلات متبخترات، متزاحمات مع الرجال مكشوفات الوجوه فى غالب الأوقات . ومنها : ركوبهنّ على الحمير الغره، وأكمامهنّ سابلة من الجانبين فى أزر رفيعة جدّا . ومنها : ركوبهنّ على مراكب فى نيل مصر وخلجانها مختلطات بالرجال، وبعضهنّ يغنين بأصوات عالية مطربة والأقداح تدور بينهنّ . ومنها : غلبتهنّ على الرجال وقهرهنّ إياهم وحكمهنّ عليهم بأمور شديدة. ومنهنّ : نساء يبعن المنكرات بالأجهار ويخالطن الرجال فيها . ومنهنّ : قوّادات يفسدن الرجال والنساء ويمشين بينهنّ بما لم يرض به الشرع. ومنهنّ : صنف بغايا قاعدات مترصدات للفساد. ومنهنّ : صنف دائرات على أرجلهنّ يصدن الرجال . ومنهنّ : صنف سوارق من الدور والحمامات. ومنهنّ : صنف سواحر يسحرن وينفثن فى العقد. ومنهنّ : بياعات فى الأسواق يتعايطن بالرجال. ومنهنّ : دلالات نصابات على النساء . ومنهنّ : صنف نوائح ودفافات يرتكبن هذه الأمور القبيحة بالأجرة . ومنهنّ : مغنيات يغنين بأنواع

الملاهى بالأجرة للرجال والنساء. ومنهن: صنف خطابات يخطبن للرجال النساء لها أزواج بفتن يوقعنها بينهم؛ وغير ذلك من الأصناف الكثيرة الخارجة عن قواعد الشريعة. فانظر إلى ما قالت الصديقة رضى الله تعالى عنها من قولها: لو أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أحدث النساء. وليس بين هذا القول وبين وفاة النبى صلى الله عليه وسلم إلا مدّة يسيرة؛ على أن نساء ذلك الزمان ما أحدثن جزءا من ألف جزء مما أحدثت نساء هذا الزمان[1]».

بعض ما جاء فى روضة المحبين لابن القيم

وهذا كتاب آخر يسمى (روضة المحبين) تأليف بن القيم الجوزى، والمطالع لهذا الكتاب يرى فى خلال مناقشة هذا العالم الجليل لهذا الموضوع صورا من المجتمع فى عصره، لا تختلف فى قليل أو كثير عما يجرى فى المجتمعات الأوربية الاباحية مع فارق بسيط، هو أن ما يقع من المنكرات فى هذه المجتمعات لا يقع باسم الدين. أما فى هذه الصور التى يسوقها ابن القيم وينكرها بطبيعة الحال ويستقبحها فإنها تجرى وتقع باسم الدين؛ فمن ذلك ما زعموه من أن المرأة التى لا ترق لعشيقها وترحمه امرأة آثمة. وجعلوا قربة من أعظم القرب الى الله الجمع بين عاشقين، وساقوا لذلك الأحاديث. وكيف توسط رسول الله عند بريرة لصالح زوجها الذى طلقت منه بعد عتقها. ويشيرون لوساطة الحسين بن على بين قيس ولبنى وأولوا الآيات. وأخيرا جعلوا عشق الذكور للذكور من الأمور المباحة المشروعة، خصوصا اذا كانوا رقيقا؛ وذلك لدخولهم فى عموم الآية ﴿أو ما ملكت أيمانكم﴾[2].

وغنى عن البيان أن كل ذلك فحش ومنكر تسود له الوجوه ومع ذلك فقد كان سائدا ومنتشرا فى كل عصر وزمان ومكان دون حجاب أو ستر، بل لعل الحجاب كان من أكبر أسبابه. فالذين يتصورون الحجاب مطفئا لنار الفتنة بين الرجل والمرأة هم جد خاطئون وواهمون. فمنذ اشتعلت هذه الفتنة بخلق حواء وهى لا تنفك تستعر وتتقد

---

(١) كتاب شرح صحيح البخارى الجزء السادس ص ١٥٨ للامام العلامة البدر العينى قاضى قضاة مصر المتوفى سنة ٨٥٥ هـ.

(٢) جاء فى كتاب فارسى من العصر الاسلامى صورة رجل يمسك بقوس ويطارد غلاما فى بركة وقد كتب تحت الصورة «أحل لكم صيد البحر».

اذ يتوقف على استعارها دوام الحياة، وليس السبيل لاتقاء هـذه الفتنة هو وضـع الحواجز المـادية بل وضع الحواجز المعنوية والأدبية، وذلك بتربية المرأة تربية خلقية علمية دينية فيحملها ذلك على الاعتزاز بنفسها والمحافظة على كرامتها، ولا كرامة لها إلا فى البعد عن الابتـذال ومواطن الريب. وإذا كان من المتفق عليه أن المـرأة قوية العاطفة حادة المشاعر، فليس هنـاك ما يقدرها على السيطرة على عواطفها إلا بتقوية عقلها... ولا سبيل لتقوية العقل إلا عن طريق العلم والثقافة وشعور المرأة بالكرامة؛ فما أسهل ما تسقط الفتاة الغريرة الجاهلة المحتجبة فريسة فى يد أول عابث، وما أعصى المرأة المتعلمة المثقفة على إجابة النزوات الطائشة. وذلك هو الذى يحدو بنا للانكار على دعاة الحجاب بعد أن زال زمنه، وراحت أيامه بانقشاع سحب الجهل والتعصب والاستبداد.

صيانة المرأة فى الحجاب المعنوى لا المادى

لقـد أصبحت المـرأة اليوم سافرة فى جميع أرجاء العالم، شرقا وغربا وشمالا وجنوبا فى قارات الدنيا الست وجزر المحيطات الخمس، وهى بذلك تنال حظا أوفر من الحرية والثقافة والعلم والقدرة على مسايرة الرجل فى نهضته. فمن المحال أن تظل نساء المسلمين متأخرات عن نساء العالمين من حيث الكرامة والاعتبار والعلم والثقافة؛ فإن ذلك يقعد بالمسلمين جميعا عن النهوض والارتقاء. فانحطاط المرأة يؤدى حتما الى انحطاط الأمة كلها؛ فما من رجل إلا وهو وليد امرأة — كما قدمنا — وهى حاضنته ومربيته الأولى، وعلى قدر شخصيتها وفضيلتها وعلمها واعتبارها يتكيف مزاج ابنها وموضعه من الحياة.

المرأة المسلمة يجب أن تساير الدنيا الزاحفـة

لقـد تغيرت ظروف العالم تغيرا جعل من المستحيل عزل الرجال عن النساء؛ فبعد أن كانت وسيلة المواصلات هى الجمل ولا يركب الجمل إلا شخص واحد صار القطار وصارت السيارة، بل وصارت الطيارة هى وسيلة المواصلات التى لا وسيلة غيرها ومن المحال ألا تقع العيون على المرأة وهى رائحة عارية تستعمل هذه المواصلات... ربما كان بقدرة المرأة بالأمس أن تسدل على وجهها قناعا وهى تسير فى الطريق،

استحالة عزل النساء عن الرجال

فلم يكن فى الطريق من المخاطر ما يهدّدها أو يدعوها للاسراع فى سيرها؛ فقد كان كل من على ظهر الأرض يدب فى بطء وتثاقل، أما اليوم فكيف تستطيع امرأة أن تخترق شارعا فضلا عن أن تنتقل من مكان الى مكان ما لم تكن مفتحة الأعين والآذان والحواس، سريعة الخطو نشطة الحركات ...؟ إن كل شىء يسير فى الحياة بسرعة، ونحن الآن فى زمن السرعة؛ فلم يعد هناك مجال لامرأة تسير الهوينى خلف قناعها.

نحن الآن فى عصر الميكانيكا والكهرباء، حيث تستطيع المرأة بمجرد إدارة لولب صغير بأصابعها أن تفتح كوبريا أو تغلقه على حسب الحاجة، أو أن ترسل الضوء الى مدينة أو تحجبه، أو أن تندفع بسيارة وترتفع بطائرة؛ فمن ذا الذى يحول بينها وبين أن تسير وأن تطير. وهذه زميلتها فى القديم كانت تركب الفرس وتحذق ركوبه، وهو مركبة القتال وآلة السفر ووسيلة الانتقال ... وأحسب أنه من المستحيل على المرأة أن تقود سيارة وهى محجبة، وليس بقدرتها أن تصعد بطائرة وهى محجبة.

والحرب لم تعد كما كانت فى القديم مهنة الرجال، بل صارت شغل الرجال والنساء والصبيان، فكيف تضطلع المرأة بدورها فى الحرب وهى محجبة؛ وكيف تساعد الرجل كما كانت تساعده المسلمات الأول وهى محجبة.

الحجاب فى طريقه الى الانقراض فى مصر

إننى أعرف أن الحجاب قد زال نهائيا من مصر وانتهى، وهو لا يوجد الآن إلا بين أقلية ضئيلة من نساء المدن، دون الريف الذى كانت المرأة فيه سافرة دائما أبدا، والذى تعمل فيه المرأة الى جوار الرجل فى الحقل وفى البيت كعنصر أساسى من عناصر الانتاج، ولولا ذلك لما استطاعت مصر أن تحرز هذا المركز الممتاز فى عالم الزراعة. ولكنى أكتب هذه السطور لا للمصريين فحسب، بل ولكل من له عينان للنظر وآذان للسمع من جمهرة المسلمين فى جميع أنحاء العالم، الذين جمدوا عن مسايرة الزمن بحجة المحافظة على الدين وتعاليمه، مع أن الدين قد جاء ليكون سبيلهم للكمال والارتقاء والعظمة والمجد، لا للتخلف والجمود والقصور والعجز ... إن الدين الاسلامى

يسر لا عسر، ومعجزته الكبرى أنه دين مرن يصلح لكل زمان ومكان، و يساير كل نهوض وارتقاء كما رأينا فيما سلف من أحكام. فليتحرك المسلمون، ليتحركوا فالعالم كله يتحرك ومن يقف تدسه الأقدام ! .

ليس معنى السفور التبذل وزوال الاحتشام

على أن كشف الوجه اذا كان ضرورة من الضرورات، وتخويل المرأة كل الحقوق التى تجعل منها مخلوقا حرا كريما فعالا متعلما لازم من لوازم المدنية والعمران؛ فإن ذلك لا يعنى مطلقا أن تخلع المرأة عنها ثوب الحياء والوقار والاحتشام، الذى هو جوهر أنوثتها وسر جمالها وفتنتها، و جزء لازم لقيامها بوظيفتها التى خلقتها من أجلها الطبيعة، وهى مساكنة الرجل بالزواج فالأمومة .

الاحتشام شرط أساسى لجواز السفور

فليس من دواعى الرقى أو العمران أو ما يبرره أى مبرر من المبررات أو تبيحه ضرورة من الضرورات، أن تتشبه المرأة بالرجل فى مسلكه وتصرفاته وتهجمه وجسارته فتختلط به فى غير تحفظ و بدون حساب . وعندى أن المرأة التى تعرض محاسنها على الرجال عرضا لغير مبرر أو ضرورة إلا الرغبة فى الفتنة والاستمتاع؛ كالمرأة التى تحشر نفسها وسط الرجال حشرا بغير مبرر أو ضرورة، هى امرأة قد فقدت أخص خصائص الأنوثة، وهى الحياء الذى يفرض عليها التنائى عن الرجال والتحفظ دونهم، والمرأة التى تفعل ذلك تقع فريسة رخيصة للرجال بغير أن تتقاضى ما تستحق من كرامة واحترام، أو تحصل على ما تطمع فيه من ثمن وجزاء . فلتمض المرأة إذن فى الحياة حرة كريمة، كاملة الشخصية والاعتبار، آخذة من الحياة كل ما تنيله الحياة لبنى الانسان، ولتمض ولا حجاب عليها ولا عائق أو قيد إلا من إرادتها وأخلاقها وضميرها، ولكن على شريطة أن تلتزم بعض القواعد التى يتعين على الرجال أنفسهم التزامها. وذلك حرصا على سلامة العمران نفسه، وتمكينا لقواعد المدنية والحضارة . وليست هذه القواعد إلا الوقار والاحتشام، والتحفظ والبعد عن مواطن الريب والشبهات، ومثيرات العواطف والشهوات . وذلك نزولا على مقتضيات العقل ومصلحة المرأة بالذات، وما نص عليه القرآن نصا ودعا إليه الرسول .

قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم

﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهنّ ويحفظن فروجهنّ ولا يبدين زينتهنّ إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهنّ على جيوبهنّ ولا يبدين زينتهنّ إلا لبعولتهنّ أو آبائهنّ أو آباء بعولتهنّ أو أبنائهنّ أو أبناء بعولتهنّ أو إخوانهنّ أو بنى إخوانهنّ أو بنى اخواتهنّ أو نسائهنّ أو ما ملكت أيمانهنّ أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهنّ ليعلم ما يخفين من زينتهنّ وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ .

يأيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين

﴿ يأيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهنّ من جلابيبهنّ ؛ ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما (١) ﴾ .

ففى الآية الأولى توكيد لهذا الحياء الذى يجب أن يسود علاقة الرجال بالنساء فيغض كل منهما بصره اذا ما التقى بالآخر . فلا ينبغى اذا حادث الرجل المرأة الأجنبية أو حادثت المرأة الرجل الأجنبى عنها أن يلتهم كل منهما الآخر ببصره . وفى الآية الأولى مثل ما فى الآية الثانية دعوة للتستر والاحتشام والوقار جهد الاستطاعة ؛ ليس فقط فى حديث النساء ولبسهنّ بل وفى مشيتهنّ ؛ حتى لا يظهر النساء بمظهر المستهترات المتبذلات ، فيطمعن فيهنّ الرجال العابثين الذين لاهم لهم إلا اصطياد النساء والجرى وراءهنّ . إن الرجال لا يطمعون إلا فى المرأة التى يأنسون منها التشجيع والإغراء ؛ فعلى المرأة الشريفة الأبية أن تبتعد جهد طاقتها عن كل ما لا يحمل الأجانب على احترامها و إكرامها والانصراف عن الطمع فيها ، فضلا عن مضايقتها ومطاردتها .

وتطبيقا لذلك ، فليس من الدين فى شىء وليس من الأخلاق أو التقاليد ، بل ليس من الخير فى شىء سواء للرجل أو المرأة والمجتمع السليم هذه الفوضى التى تجعل من النساء شبه عاريات ، وخاصة فيما يسمى بأثواب السهرة حيث تبدو المرأة نصف عارية حاسرة ، تعرض جسدها ومفاتنها ومحاسنها على الرجال ؛ فليس هناك ما يحفز

لعنة النساء المستهترات

---

(١) آية ٥٩ سورة الأحزاب .

المرأة على ذلك وما يدعو الرجل لتشجيع المرأة عليه، إلا مجرد الرغبة فى الاستمتاع غير المشروع بأجساد النساء، واتاحة الفرص لانطلاق الغرائز والشهوات من عقالها .

أما ما يحدث على شواطئ البحار حيث تتعرى النساء والرجال على السواء إلا من القليل التافه الذى أبقى عليه لمضاعفة الفتنة والاغراء، فهو ما لا يقره أى عقل أو ذوق سليم فضلا عن تقليد صالح وأحكام دين؛ فهو كهذه السهرات الراقصة ضرب من ضروب الاباحية ونشر الرغبة فى جعل النساء ملكا مشاعا للجميع، وهو ما أظهرنا فيما سبق خطره على المجتمع وما فيه من هدم لكيانه .

ومثل ذلك يقال عن كل لون من ألوان الرقص المشترك، ومساهمة النساء مع الرجال فى غشيان دور اللهو الحرام والعبث؛ كالحانات والكابريهات ودور الميسر والمقاهى، وسائر الأمكنة التى يرتادها الرجال لإضاعة الوقت و إرضاء الشهوات والتحلل من القيود . فكل هذه الأمكنة يجب أن تكون محرمة على النساء باعتبارها منكرا من المناكر التى يجب أن تحرم على الرجال أنفسهم .

وجوب الامتناع عن كل خلوة بالمرأة الأجنبية

وأما القاعدة الثانية التى يجب أن يقيد بها سفور النساء واختلاطهن بالرجال فهى ما قرره الرسول صلى الله عليه وسلم من أن "لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم" والخلوة هى أن يضم الرجل والمرأة مكان واحد يغلق عليهما أو يبعد فيه عن أعين الرقباء؛ فمثل هذا التصرف لا يمكن أن تدعو اليه أى ضرورة من الضرورات، إلا أن تكون ضرورة التواد والتقارب الجنسى ، وهو ما يجب أن لا يكون إلا على أساس الزواج و بعد تمامه . فالخلوة هى ما يجب أن يتحاشاه كل من الرجل والمرأة، فلا يجتمع أحدهما على انفراد لأى سبب من الأسباب إلا فى حضور أحد محارم المرأة .

وما من مجتمع من المجتمعات المتمدينة التى استتب فيها القانون والنظام إلا وهذه القاعدة من أخص تقاليده مهما بلغت فيها درجة حرية المرأة وتطورها . وفى ظل هاتين القاعدتين : قاعدة التزام المرأة جانب الوقار والاحتشام فى الثياب

والحديث والتصرفات من ناحية، وعدم اختلائها بالرجل الأجنبي من ناحية أخرى لا يعود ثمة ما يحول بين المرأة و بين أن تشترك فى كل ميادين النشاط الاجتماعى والأدبى والسياسى ، وليس من حرج أن تقع عليها الأبصار للضرورة متى لم يكن المقصود من النظر هو مجرد الاستمتاع والافتتان ؛ إذ أنه يكون فى هذه الحالة غير مشروع ومكروه ، وذلك هو ما عناه الرسول صلوات الله وسلامه عليه عند ما قال لسيدنا على : " يا على لا تتبع النظرة النظرة فان لك الأولى وليست لك الآخرة "[1]. ذلك أن النظرة الأولى أمر تحتمه الضرورة وتبيحه، أما النظرة الثانية أو بالأحرى إدامة النظر فهى التى لا ترمى إلا الى الاستمتاع والافتتان .

لا تتبع النظرة النظرة فان لك الأولى ... ...

الخلاصة

ان هذا الحجاب الذى يفرضه بعض المسلمين على نسائهم باسم الدين، ليس أصلا من أصول الدين ولا هو ركن من أركانه، وإن ما قيل عنه من أنه من باب سد الذريعة بدوره غير صحيح ؛ لأن العصمة الحقيقية للمرأة إنما تكون فى دينها وعلمها وشخصيتها لا فى حجبها عن الأنظار وحبسها فى عقر الدار، فقد أثبتت التجربة أن ذلك لم يؤد ولا يمكن أن يؤدى الى النتيجة المرجوة، فضلا عما فى ذلك من إهدار لكرامة المرأة والحيلولة بينها و بين مزاولة حقوقها التى خولتها لها الشريعة. فليس من ضير على المرأة المسلمة أن تكشف عن وجهها وكفيها فى حدود الاحتشام والوقار، وأن تختلط بالرجال للضرورة فى مواطن الجهاد والعبادة والعلم والأسواق، على أن لا تخلو بأجنبى عنها لأى سبب من الأسباب إلا فى حضور أحد محارمها .

---

(١) رواه أبو داود والترمذى .

الفصل الرابع

الشروط اللازمة لنجاح الحياة الزوجية

نعود الآن بعد هذا الاستطراد المسهب فى مناقشة حقوق المرأة ونظرية السفور والحجاب الى ما كنا بسبيل تقريره ، وهو أن الحياة الزوجية هى مايجب أن يكون هدف كل رجل وامرأة . فالأسرة — وليس الفرد ذكرا كان أو أنثى — هى خلية المجتمع الأولى ، ولا صلاح لأى مجتمع من المجتمعات إلا بصلاح هذه الخلية الأولى. وقد حان الوقت الذى أفصل لك فيه يابنى بعض الشروط اللازمة لنجاح الحياة الزوجية ، أو بالأحرى لنجاح الأسرة وازدهارها وتوفيرها أكبر نصيب من السعادة لأعضائها وأكبر نصيب من القوة لمجتمعها . ولعل أول مايخطر على الذهن التساؤل عن ميعاد الزواج وأوانه أو بالأحرى :

السن الصالحة للزواج

لم يكن للزواج فى القديم سن معينة لا يصح الزواج قبلها إلا السن الذى تحدده الطبيعة ببلوغ الفتى والفتاة سن النضج الجنسى ، وهو أمر يتم عادة فى العام الرابع أو الخامس عشر بالنسبة للفتى وقبل ذلك بالنسبة للفتاة ، فكان الزواج يجرى فى هذه السن وحولها ؛ بل لقد جرت عادة الناس أحيانا على أن يزوجوا أولادهم وبناتهم قبل هذه السن ، وما ذلك إلا لأن ظروف العالم الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية كانت من البساطة والسذاجة بحيث تسمح لمثل هذا النظام الذى كان ينظر فيه إلى المرأة بامتهان واحتقار ، وأنها ليست إلا مجرد وسيلة لاطفاء الشهوة وخدمة الرجل بعد ذلك . ولكن تطور أحوال العالم وتغير ظروف المعيشة ، وما أصبح على الرجل أن يحصله من علوم ومعارف واستعداد ومران قبل أن يقدر على

اكتساب رزقه على وجه الكفاية لأنشاء أسرة ، وكذلك الحال بالنسبة للمرأة التى لم تعد مهمتها فى تدبير حياة زوجها وتربية أولادها بالمهمة السهلة كما كانت فى القديم . كل ذلك قد جعل من أوجب الواجبات تأخر سنّ الزواج ، ريثما يكمل نضوج الشاب واستعداده وشق طريقه فى الحياة حسب وسائل العصر وظروفه ، وذلك قد لا يتهيأ قبل سنّ الخامسة والعشرين إذا كان قد اشتغل بالدراسات العالية ، وقبل ذلك بقليل إذا كان قد اختصر طريق التعلم واحترف حرفة من الحرف ؛ وعلى أى حال فان بلوغ هذه السنّ لازم لتحقيق قدر معين من تجربة الحياة ، والتخفيف من حدّة اندفاع الشباب التى تكون على أشدّها وأقواها قبل هذه السنّ . وليس معنى ذلك أنه يجب أن يحظر أو أن يحال دون أى شخص وبين الزواج قبل هذه السنّ ؛ فقد يتحقق النضوج العقلى والاستعداد المالى قبل هذه السنّ بكثير ، ولذلك فمتى صار أى شخص من الأشخاص راشدا بحكم القانون فى إدارة أمواله ، فقد صار من حقه أن يتصرف أيضا فى شخصه بالزواج ، ولكن الزواج قبل الخامسة والعشرين ربما كان سببا فى إرهاق الشاب وعرقلة نهوضه وشق طريقه فى الحياة بنجاح . ولا ينبغى من ناحية أخرى أن يتأخر زواج الشاب بأية حال من الأحوال عن سنّ الثلاثين وإلا كان معنى ذلك أن الشاب قد ضيع زهرة شبابه والحلقات الأولى من رجولته فى الاضطراب والفوضى والتيارات الخطرة والحياة القلقة .

الخامسة والعشرون هى السنّ المناسب لزواج الشاب

أما بالنسبة للفتاة فكل زواج قبل نهاية العقد الثانى من عمرها (أى قبل العشرين) هو زواج مبتسر سابق لأوانه ، وليس من شأنه فى أيامنا الحديثة أن يهيئ زوجة وأما ناضجة من الناحية العقلية ، بعد أن صارت تربية الأبناء تربية صالحة تستدعى قدرا كبيرا من العلوم والمعارف ، ومصاحبة الزوج فى حياته ومشاركته آراءه وأفكاره وأحزانه وأفراحه وعلانيته وأسراره تستدعى درجة علمية من الثقافة ، بل إن طبيعة حياتنا العمرانية قد قللت من استعداد المرأة البكر للاضطلاع باعباء الحمل والوضع والرضاعة والحضانة فى زمن مبكر ؛ فأصبح لا بدّ لها من سنوات أكثر بعد نضوجها

العشرون هى السنّ المناسبة لزواج الفتاة

الجنسى لتؤدى وظيفتها فى الأمومة بغير إضرار بصحتها، وسنّ العشرين أو حول ذلك هى السنّ التى تستطيع فيها الفتاة أن تكون صديقة لزوجها وشريكة له منذ اليوم الأول لزواجها، وأن تكون أما صالحة منذ اليوم الأول لميلاد طفلها الأول .

وجوب التكافؤ بين الزوجين

ومن ألزم لوازم الزواج لإمكان نجاحه وتوفيقه وتحقيق أجمل صوره وغاياته، أن يكون هناك تكافؤ بين مختلف ظروف المرأة وظروف الرجل، وليس معنى ذلك أنه يجب أن يوضع قيد على حرية المرأة أو الرجل فى اختيار الزوج الذى يريد، فهذه مسألة يجب أن تترك للشخص نفسه ولا يصح التدخل فيها بحال؛ لأنها من حقوق الفرد المقدسة رجلا كان أو امرأة . ولكن الذى يحسن بالرجل أو المرأة اللذين يريدان أن ينعما بزواجهما وأن يوفقا فيه أن تكون ظروف كل منهما متقاربة من حيث البيئة والثقافة ، والغنى والجمال والسن والجنسية .

فالرجل الرفيع الذى يتزوج بوضيعة كالرفيعة التى تتزوج بخسيس، لا يمكن أن تستقيم لهما حياة زوجية والغنية التى تتزوج بالفقير، والغنى الذى يتزوج بفقيرة والجميلة التى تتزوج بدميم والجميل الذى يتزوج بدميمة، والصغير الذى يتزوج بكبيرة والكبير الذى يتزوج بصغيرة والوطنى الذى يتزوج بأجنبية والوطنية التى تتزوج بأجنبى كل هذه مفارقات من شأنها أن ترتطم بها سفينة الحياة الزوجية إن عاجلا أو آجلا ، فتعرضها للدمار والبوار ، فيما خلا الأحوال النادرة الشاذة التى لا يجب أن يقاس عليها أو أن تكون قاعدة من قواعد الزواج .

عقم كل زواج لا يقوم على التكافؤ

إن أول ما يوصف به الزواج المنطوى على إخلال بالتوازن بين الزوج والزوجة أنه لم يكن خالصا لوجه الله، أو بالأحرى لوجه الحياة الزوجية كما أعدها الله وهيأها لتكون سكنا للزوجين ومحبة ووداد وصداقة، وإنما هو زواج قد أريد به المنفعة والمآرب المادية و إرضاء الشهوات العاجلة، ومحال أن يستقيم زواج بنى على

المطامع أو الغلو فى الشهوات . إن أخص خصائص الزواج أن ينظر كل من الزوجين الى الآخر باحترام وتوقير، وأن يكون محل ثقته ولن تحترم المرأة رجلا تزوجها لمالها أو جاهها ونفوذ عائلتها ؛ كما أن المتعلم لن يستطيع أن يكرم امرأة جاهلة ، والوطنى لن يستطيع أن يحظى بكل عاطفة الأجنبية التى عاشت ونمت وترعرعت فى بيئة غير البيئة ، ولها ذكريات وآمال وأماكن تتجه نحوها ببرها وعاطفتها غير التى يألفها أو يكرمها زوجها .

ولقد دلت التجارب على أن كل زواج مبنى على غير التكافؤ أو التوازن كما نسميه لا يلبث أن ينفرط عقده لدى قيام أزمة بين الزوجين، إذ سرعان ما يقذف الطرف الممتاز الطرف الآخر فى وجهه بما هو عليه من نقص أو خساسة فلا يمكن أن تستقيم الحياة بعد ذلك أبدا ؛ كأن يقول الغنى للفقيرة : لولاى لكنت الآن تتسولين . أو كأن تقول الرفيعة للوضيع : إنها كانت مجنونة عند ما قبلت الزواج بخسيس مثله . أو أن تقول الأنجليزية لزوجها المصرى : ما أنت فى نهاية الأمر إلا متوحش همجى أفريقى وهكذا . والزواج كأية شركة من الشركات لا يمكن للانسان أن يحرص عليها إلا إذا وجد فائدته المحققة فى الاحتفاظ بهذه الشركة ، ولن يشعر كل من الزوجين بالاطمئنان إلى الشركة الزوجية إلا عند مايدرك كل الإدراك أنه لم يكن مغبونا فى صفقته من أى وجه من الوجوه .

أمر الزواج الغير متكافئ على الأبناء

على أن الخطر الأشد الذى نجم من كل زوجية غير متكافئة ، إنما يتجلى بالنسبة للأولاد الناجمين عن هذا الزواج ، حيث تقتضى أصول التربية أن يكرموا أبويهم وأن ينظروا اليهما بتوقير واحترام . فإذا كان أحد الأبوين على جانب من التفوق والامتياز فى ناحية من النواحى دون الآخر ، شب الأولاد وشقهم مائل نحو أحد الأبوين وهم معرضون عن الجانب الآخر ؛ فيحيطون أمهم أو أباهم حسب الظروف بتقديرهم واعتبارهم وأقبالهم وطاعتهم بينما يزدرون الطرف الآخر ولا يقيمون له وزنا . ولن يكون مثل هؤلاء الأولاد نافعين لأنفسهم أو اسراتهم أو وطنهم ؛ لأن مركز التوازن فى نفوسهم قد اختل واضطرب .

وجوب رضاء الزوجين عن العقد طواعية واختيارا

و إذا كانت الكفاءة بين الزوجين ضرورة لنجاح الأسرة مرة واحدة، فان الرضا المتبادل بين الزوجين والسابق على إتمام العقد ضرورى مائة مرة؛ فلن تفلح أسرة شيدت على الإكراه والعنف وأغفال موافقة أحد الطرفين . فالزواج وهو ليس إلا عقدا يربط شخصين الى الأبد ، بل ويربطهما بأقوى من رابطة الدم، ويترتب عليه من النتائج القانونية والمالية والاجتماعية مالا يترتب على إبرام أى عقد آخر من العقود هو فى مقدمة العقود ايجابا للرضا المتبادل بين المتعاقدين، وأن يكون رضا عن طواعية واختيار غير مشوب باكراه أو غش أو تدليس. وهذا ما جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يحث على النظر الى المخطوبة قبل الزواج ويقول "فإن ذلك أحرى أن يؤدم بينكما" حتى يكون الزواج عن اختيار ورضا وهذا ما حدا به من ناحية أخرى إلى أن يجعل موافقة البنت على الزواج ركنا أساسيا من أركان الزواج الذى لا يتم إلا به ، حتى ولو كانت البنت جارية صغيرة لم تبلغ بعد سن الرشد : "لا تنكح الأيم حتى تستأمر ولا تنكح البكر حتى تستأذن". ولذلك كان من أوجب الواجبات أن يحيط كل من الزوجين بظروف الآخر قبل الزواج، وأن يراه وأن يرى من أحواله وظروفه ما يحمله على الاقتران به ، والاشتراك معه فى تأسيس الأسرة وإنجاب نسل مشترك .

وغنى عن البيان أن ما يتشدق به بعض الجهال والمتعصبين من أن بناتهم لا رأى لهم فى الزواج وإنما الكلمة كلمتهم أولا وأخيرا .

ليس من الدين أو الحكمة فى شئ، وأن زمنه قد زال وانتهى لا منذ القرن العشرين كما يتوهم البعض بل منذ القرن السابع الميلادى بعد بعث الرسول العربى الكريم (١) .

---

(١) راجع ما ذكرناه عن حق المرأة فى التصرف فى شخصها بالزواج وغيره فى الفصل الثانى ...

الصحة الجسدية ووجوب كمالها فى الزوج والزوجة

وثمة شرط جوهرى آخر، يجب أن يتوفر قبل المضى فى عقد أى زواج أو بناء أى أسرة، وذلك هو الصحة الكاملة لكل من الزوجين وخلو كل منهما من الأمراض السرية الخبيثة، أو الأمراض المزمنة الخطيرة كالسل والسرطان والجنون. فان هذه الأمراض كلها تنتقل بالعدوى لا إلى الطرف الثانى فحسب بل و إلى الأولاد من بعد؛ فيشبون منكوبين بأمراض مستعصية لا حيلة لهم فى التخلص منها ولا سبيل لتذوق الحياة مع سريانها فى دمائهم . إن قانون الوراثة هو قانون مطرد ينقل إلى الأبناء كل خصائص الآباء، و يورث الأبناء أحسن ما فى الآباء والأمهات من خصائص؛ فلو اهتم كل صحيح الجسد والعقل ألا يتزوج إلا بمن هى صحيحة الجسد والعقل، لشب الأطفال فى أحسن حالة من حيث القوى البدنية والعقلية والاستعداد للحياة والتطور. وتلك هى سنة الله فى خلقه، وقد اكتشفها الإنسان منذ أقدم العصور واستخدمها فيما استأنس من حيوانات ونباتات؛ فراح لا ينمى منها إلا السلالات الجيدة ذات الخصائص الطيبة. والإنسان أحرى من الحيوان والنبات بتطبيق هذه القاعدة على نفسه لتحسين النوع وارتقائه، و إنجاب نسله فى خير الظروف وأكملها؛ وتلك مسألة يجب أن يتدخل فيها التشريع، فلا يؤذن بزواج إلا بعد تحقق فعلى من سلامة جسدى الزوج والزوجة من كل مرض خطير أو معد أو مستعص ينتقل بالوراثة، وأن يتحقق كذلك من القوى العقلية وسلامة مراكز الأعصاب الحيوية؛ فأن بعض الأشخاص يكونون مختلى الأعصاب اختلالا يورث شركاءهم فى الحياة شر المتاعب والآلام، و يورث هذا الاختلال لأولاده من بعده. وهذه أمور يجب أن تعالج قبل الزواج، بحيث لا يقترن الإنسان ولا يختار أمّا لأولاده إلا صحيحة قوية فى جسدها وقواها العقلية والعصبية؛ وفى ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس". وليس أقل درجة فى الأهمية مما سبق وجوب التأكد قبل الزواج من صلاحية كل من الزوج والزوجة للقيام بوظيفة الزوجية

تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس

الحيوية ، وأعنى بها التناسل . فليس هناك ما يقوّض هناء الأزواج وما يهد كيان الأسرات من عجز أحد الزوجين عن أداء وظيفته الحيوية ، مع أن بعض التوجيهات والإرشادات والعلاجات الطبية التى تعطى للزوج أو الزوجة قبل الزواج قد تضاعف فى سعادة الزوجين وتدعم حياتهما الزوجية . وهذه مسألة من أكبر ما تعنى به الشريعة الإسلامية التى تبيح الطلاق بناء على طلب المرأة أو الرجل ، إذا اكتشف كل منهما فى الآخر بعد الزواج عيبا خفيا فى هذه الناحية كعجز الرجل المطلق عن القيام بوظيفته الجنسية . فلو جرى التحقق قبل الزواج من سلامة الزوج وصحته ، والمرأة وصحتها لاستغنى عن طلب الطلاق المتأخر لهذا السبب ، والذى يجر وراءه الفضيحة والعار والزراية . فالكشف الطبى السابق على الزواج والذى يتعين على التشريع أن يفرضه ، يجب أن يتناول فيما يتناول هذه الناحية ، على ألا تكون سببا مانعا للزواج إذا ارتضته المرأة وقبلت الرجل على أساسه ، وذلك على خلاف الأمراض الخطرة الأخرى ؛ كالزهرى أو السل أو السرطان التى يجب ألا يتم الزواج بأى حال من الأحوال مع قيامها .

حق كل من الزوجين على شريكه

إذا توافرت الكفاءة بين الزوجين وتم اقترانهما عن رضا واختيار ، وكانت قواهما الجسدية والعقلية صحيحة : سليمة ، فليس هناك ما يحول دون نجاح الحياة الزوجية واستمرارها مدى حياة الزوجين ، بل وبعد وفاة أحدهما حيث يستمر الآخر مخلصا لذكراه أمينا على عهده راعيا لأولاده ، واصلا ما وصل مقاطعا ما قطع مكملا لما بدأ . بل إن نجاح الزوجية يتجلى أثره فيما وراء ذلك فى هؤلاء البنين والحفدة ، الذين تتفرع إليهم شجرة الأسرة ، بحيث تصبح وقد طاب جناها وتضوع أريجها ، وثبت أصلها وارتفع فرعها إلى السماء . على أن نجاح الأسرة وتوفيقها الكامل وقيامها بدورها فى الحياة ينبوعا للسعادة والهناء للزوجين والأبناء ، لا يتم أو يتحقق إلا إذا راعى كل من الزوجين حقوق الآخر عليه وحق الأبناء عليهما وحقهما على الأبناء .

وتتلخص هذه الحقوق فى كلمات قلائل : الطاعة لرب الأسرة ، والإكرام لربتها والبر والرعاية بالأبناء .

حق الطاعة لرب الأسرة

فأما الطاعة لرب الأسرة ، ونعنى به الرجل ، فهذه هى حجر الزاوية فى بناء الأسرة وضمان هنائها و رقيها وتطورها ، فللرجل على زوجته حق الطاعة ... الطاعة التامة المطلقة التى لا تحتمل جدلا أو مناقشة ، فاذا فرط الرجل ، فى هذا الحق أو نازعته فيه زوجته اضطربت الحياة الزوجية وتزعزعت ، ولم تلبث أن تعثرت أو يحيق بها الدمار . ذلك أن الزواج ليس الا شركة ، ولابد لكل شركة من رئيس يديرها و يتكلم باسمها ، و يكون صاحب الكلمة الأخيرة بشئونها ، ليمكن البت فى مصالحها وكل ما يحقق سعادتها ونفعها . وعلى الزوجة أن تدخل فى طاعة زوجها دون أن ترى فى ذلك أى غضاضة أو مساس بحريتها وكرامتها ، ما دامت قد دخلت فى هذا الزواج حرة مختارة ، وكانت لها الكلمة الأخيرة فى ارتضاء الرجل الذى خولته حق رئاسة الشركة الزوجية . وهى فى ذلك تشبه الجماعة فى أمة ديمقراطية ، حيث تختار من بينها رئيسا توليه زمامها ، وقيادتها ، وتخضع له وتطيع ، بدون أن يكون فى ذلك أى معنى للمساس بحريتها أو كرامتها أو حقوقها ، لأن الرئيس لم يفرض عليها فرضا ولم تكره على الخضوع له ، و إنما فعلت ذلك لتحقيق النظام ، و بناء المجتمع الذى لا يمكن أن يستغنى عن رأس يديره ، و يدين له سائر الأعضاء بالولاء والطاعة .

قد يقول قائل : ولكنك وقد سويت بين الرجل والمرأة فى كافة الحقوق والواجبات ، لماذا تخص الرجل بحق الرئاسة دون المرأة دائما ؟ ولماذا لا تكون هذه الرئاسة بحسب الظروف ، فتارة تكون للرجل وتارة للمرأة . والجواب على ذلك : أن الوضع الطبيعى قد قضى بهذه الرئاسة للرجل ، لأن الرئاسة دائما من نصيب الأقوى والأقدر على حماية المجموع والدفاع عنه ، ولا مراء فى أن الرجل بصفة عامة أقدر من المرأة على حماية مصالح الأسرة والذود عنها والكدح من أجل تدبير معاشها . وذلك هو دوره الذى أعدته من أجله الطبيعة ، وسلحته بما يحتاجه من أسلحة فزادته بسطة

فى الجسم والعقل (حسبما تدل عليه التشريحات الطبية) . والرجل من ناحية أخرى هو المسئول عن إعاشة الأسرة و إعالتها ، و بقدر المسئولية تكون الحقوق . ومن أجل ذلك وجب أن يكون الرجل هـو رئيس الشركة الزوجية دائمـا ، ولا عبرة بالاستثناءات والأحوال الشاذة ؛ حيث تتزوج امرأة قادرة برجل عاجز أو غنية بفقير أو عالمة بجاهل . فقد بينا فيما سبق أن مثل هذا الزواج الذى لا تتحقق فيه الكفاءة بين الزوجين هو زواج غير طبيعى وغير عادى ، ولا يمكن أن ينشأ عنه إلا الاضطراب وانقلاب الأوضاع[1] ، أما فى الزواج الطبيعى حيث تتكافأ ظروف الرجل والمـرأة يكون الرجل هو الأحق بالرئاسة ؛ لأنه يكون أكثر تفوقا وأكثر قدرة على القيام بأعباء الأسرة . فمـا بقيت المرأة غير متزوجة فحقها فى المساواة المطلقة مع الرجل هو حق كامل فى كل شأن من الشئون ، بحيث يحق لها ألا تطيع غير عقلها وهواها ، ولكن بعد أن تصير زوجة فقد وجب عليها أن تقدم زوجها بطاعته والرضا برئاسته ، حتى تستقيم الحياة الزوجية و يطرد نجـاح الأسرة ، وذلك هو ما قصد اليه القرآن الكريم بقوله : ﴿ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة[2] ﴾ . وليست هذه الدرجة سوى حق الطاعة الواجب للزوج على زوجته .

ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف

على أن هذه الطاعة المفروضة على المرأة لزوجها ليست طاعة عمياء كطاعة العبد لسيده ، وليست طاعة بدون قيد أو شرط أو حدود ، و إنمـا هى كطاعة الأحرار لرئيسهم ، تعتمد على الثقة بشخصه ، والإيمان باخلاصه ، والصلاح فى تصرفاته ؛ وعلى شريطة ألا يبرم الرئيس أمرا إلا بعد مشاورة أعوانه وأنصاره ؛ حتى يستبين له الرأى وتتضح الحجة : فاذا شاء مضى فيما اعتزم بما له من حق الرئاسة ، أو رجع عن الخطأ الى الصواب وعن الرأى الى ما هو خير منـه . فاذا استبد الرئيس بالأمر ، و بان فى تصرفاته سـوء النية والكيد والرغبة فى الأضرار والإساءة ؛ كما لو كانت آراؤه

طاعة أساسها الشـورى

---

(١) وعلى كل حال ففى أمثال هذا الزواج الذى تكون فيه المرأة هى الطرف الأقوى تتولى المرأة رئاسة الأسرة فعلا ، و بعض النسوة يشترطن أن تكون عصمتهن فى أيديهن وهو مظهر من مظاهر رئاسة الأسرة .

(٢) آية ٢٢٨ سورة البقرة .

وتصرفاته ظاهرة الفساد والبطلان، فقد سقط حق الطاعة المفروض له، وصارت الجماعة فى حل من خلع طاعته والتحرر من رئاسته . وعلى ضوء هذه القواعد العامة يجب أن تسير الأمور فى الشركة الزوجية؛ فيتبادل الزوج مع زوجته الرأى ويشاورها فى الأمر، نزولا عند قول القرآن الكريم : ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾(١) . ولقد أشار القرآن إشارة صريحة إلى حق التشاور بين الزوج وزوجته فى قوله تعالى : ﴿ فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما﴾(٢) . فالمشاورة بين الزوجين واجبة فى كل مايتصل بشئون الأسرة وأحوالها ، بل أنها يجب أن تمتد إلى كل ما يقوم به الرجل من عمل، فليس هناك كالزوجة المخلصة الصادقة، مستشار أمين لزوجها ، تهديه بعاطفتها ، وتحميه بغريزتها . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو من هو ، يستشير زوجاته ويأخذ برأيهن فى بعض الأمور العامة . وقد ذكرنا فيما سبق موقف السيدة خديجة من الرسول عند ما جاءها فزعا مضطربا من هول ما رأى(٣) .

وأمرهم شورى بينهم

وقد روى لنا مسلم حديثا من أروع الأحاديث، عن سيدنا عمر بن الخطاب فى هذا المعنى ؛ لإظهار حق المرأة فى مراجعة زوجها، وإبداء رأيها فى كل ما يعن له من أمور على أن يكون الرأى الأخير لزوجها؛ قال عمر رضى الله عنه : « والله إن كنا فى الجاهلية ما نعد للنساء أمرا حتى أنزل الله تعالى فيهن ما أنزل، وقسم لهن ما قسم؛ فبينما أنا فى أمر أأتمره إذ قالت لى امرأتى : لو صنعت كذا وكذا؛ فقلت لها : ومالك

حديث سيدنا عمر بن الخطاب

---

(١) آية ٣٨ سورة الشورى . (٢) آية ٢٣٣ سورة البقرة .

(٣) وقد سجل التاريخ فى معرض آخر، كيف عمل الرسول فيه بنصيحة زوجته أم سلمة فى صلح الحديبية، إذ دخل عليها غاضبا ثائرا ينعى على المسلمين ترددهم فى طاعته وقعودهم عن تلبية ندائه لهم بالارتحال بعد إبرام الصلح . فأشارت عليه بما سكن غضبه وهدأ من روعه، ودعته إلى أن يعود اليهم فيبدأ بتنفيذ ما طلب منهم إنفاذه وهو (حلق الرأس) ففعل الرسول بنصيحتها ونفذ مشورتها؛ فما كان من المسلمين إلا أن تسابقوا فى حلق رءوسهم أسوة به، وهم الذين كانوا قبل ذلك بدقائق قليلة يعارضون فى ذلك الأمر ويتململون .

أنت، ولما هاهنا ! وما تكلفك فى أمر أريده ! فقالت لى: عجبا لك يابن الخطاب ! ما تريد أن تراجع أنت ، وإن ابنتك لتراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان . قال عمر : فآخذ ردائى ثم أخرج من مكانى حتى أدخل على حفصة فقلت لها : يابنية ، إنك لتراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان ؟ فقالت حفصة : والله إنا لنراجعه ، فقلت : تعلمين أنى أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله ، يابنية لا تغرنك هذه التى قد أعجبها حسنها وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم إياها ، ثم خرجت حتى أدخل على أم سلمة لقرابتى منها فكلمتها فقالت لى أم سلمة : عجبا لك يابن الخطاب ! قد دخلت فى كل شىء حتى تبتغى أن تدخل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه ! قال : فأخذتنى أخذا كسرتنى عن بعض ما كنت أجد » .

فاذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفسح المجال لزوجاته فى إبداء الرأى ، حتى ليصل بهنّ الأمر إلى حدّ مغاضبته وهو صابر على ذلك لا يرى فيه حرجا ، فكم بالأحرى ينبغى على كل رجل لم يبلغ مبلغ الرسول أن يكون أمره شورى مع زوجته ، وأن يعمل بنصحها ورأيها كلما ظهر له رجاحة رأيها .

ويجب على الرجل من ناحية أخرى ألا يكلف زوجته بما لا يطاق ، وبما لا يجوز أن تطيعه فيه عقلا أو شرعا ، كما لو دعاها الى ما يضر بصحتها أو يخل باعتبارها وشرفها وكرامتها ، أو يؤذى الأسرة وينال منها ، إذ لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، ومعصية الخالق أظهر ما تكون فى الإخلال بسنن المجتمع ونواميسه وأنظمته التى شرعها الله أو تواضعت عليها الجماعة .

لا طاعة لمخلوق فى معصية الله

حق الزوجة على زوجها

واذا كنا قد فرضنا على المرأة واجب الطاعة لزوجها ، فإن مقابل هذا الواجب حقها على زوجها فى إكرامها واحترامها ، بل ان الطاعة لن تتوافر بحال من الأحوال إلا اذا تحققت هذه الكرامة التى هى شرط أساسى . فعلى الزوج أن يكرمها ويرعاها

ويحترمها ويجلها ؛ فليس هناك ما هو أولى بالتكريم والمراعاة من المرأة العفيفة البارة العاملة ، فهى خير ما فى الدنيا كلها من نعم ، وهى الصديقة فوق الأصدقاء ، والوفية قبل الأوفياء ، هى قوة الرجل وعدته وناصرته ومشيرته ، هى حصنه الحصين وركنه الركين الذى يأوى اليه بعد الكد والتعب والاضطراب ، والألم واليأس والحزن ، فيجد عندها ما يذهب بآلامه ويخفف هواجسه ، وما يهدئ روعه ويثبت جنانه ، وما يشحذ عزيمته ويجدد نشاطه وقوته ، فينطلق من جديد إلى الحياة وقد تجدد فيه الأمل واشتد ساعده . وهذه هى المرأة الصالحة أولى المخلوقات بالاكرام والرعاية ، وهى التى عناها الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : " خير ما يكنز فى الدنيا المرأة الصالحة إذا نظر اليها زوجها سرته وإذا أمرها أطاعته وإذا غاب عنها حفظته "[1] . فإكرام النساء واجب على الرجال مفروض ، لا يدعه الرجل إلا إذا كان ناقص الرجولة قليل المروءة . أو كما قال رسول الله : " ما أكرم النساء إلا كريم وما أهانهن إلا لئيم "[2] .

ما أكرم النساء إلا كريم

وآيات القرآن تترى كلها فى الحض على إكرام النساء وإحسان معاملتهن . وكانت آخر وصاية لرسول الله فى حجة الوداع للمسلمين أن يحسنوا الى المرأة ويكرموا مثواها ومعاملتها : ﴿ وعاشروهن بالمعروف[3] ﴾ . ﴿ فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان[4] ﴾ . ﴿ فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف[5] ﴾ . ﴿ يأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما[6] ﴾ ﴿ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف[7] ﴾ . وهكذا لم يشر القرآن إلى النساء فى أى آية من الآيات إلا ودعا الى إحسان معاملتهن وإكرامهن ، حتى فى حالة الانفصال عنهن وتطليقهن . وليس وراء ذلك إعزاز للمرأة أو إكرام ، بل أن القرآن ذهب الى حد إيجاب الاحسان

وعاشروهن بالمعروف

---

(١) أبو داود وأبو يعلى وغيرهما .
(٢) رواه ابن عساكر .
(٣) آية ١٩ سورة النساء .
(٤) آية ٢٢٩ سورة البقرة .
(٥) آية ٢٣٥ سورة البقرة .
(٦) آية ٢٩ سورة الأحزاب .
(٧) آية ٢٢٨ سورة البقرة .

فى المعاملة حتى ولو كره الزوج زوجته، واعدا إياه بأن الخير قد يكون فيما يكره ﴿ وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا (١) ﴾ .

ومن إكرام الرجل لزوجته أن يظهر لها جانب اللين والرقة والتواد ، فلا يحاسبها على التافه من الأمور ، ويغضى عن هفواتها ، ويشاركها فى القيام بأعمالها ، فقد سئلت السيدة عائشة عما كان النبى صلى الله عليه وسلم يصنع فى أهله فقالت : « كان فى مهنة أهله فإذا حضرت الصلاة قام الى الصلاة (٢) » . وإذا كان ذلك فعل النبى فهو ببقية الرجال أوجب . وما ذلك كله إلا لإظهار التعاون والتعاطف والاشتراك بين الزوجين .

كان الرسول فى مهنة أهله

ويجب على الزوج أن يكون واسع الصدر متسامحا إذا ما أخطأت الزوجة أو غضبت أو أفلتت أعصابها ، فللنساء بحكم طبيعتهن ثورات عاطفية جامحة ، إذا لم يحتملها الإنسان بصدر رحب فربما ساءت العاقبة . فعلى الرجل دائما أن يصبر وأن يتسامح فى كل ما لم يبلغ إلى حد تهديد مصالح الأسرة وكيانها وكرامتها أو حقه فى رئاستها ، فهنا يتعين على الرجل أن يكون حازما صلبا متشددا ، وإلا شاعت الفوضى فى الأسرة واضطربت واختلت .

بحث فى تعدد الزوجات

ومما يتصل بموضوع إكرام النساء واحترامهن وإحسان معاملتهن مسألة تعدد الزوجات ، وما يجب أن يوضع لاستعمال هذا الحق من نهاية فى عصرنا الحديث ، بعد أن تطورت الظروف الاقتصادية والاجتماعية لأحوال العالم ، بحيث بات من المتعذر استعمال هذا الحق والاحتفاظ بكرامة المرأة فى نفس الوقت . ومن الحق علينا أن نبين موقف الدين الاسلامى من هذه القضية كما فعلنا فى جميع المسائل السابقة .

لا جدال أنه من حق المسلم بموجب نصوص القرآن وسنة الرسول والصحابة ، وما جرى عليه إجماع المسلمين فى فترة من الزمان أن يتزوج بأكثر من واحدة وأن

---

(١) آية ١٩ سورة النساء . (٢) رواه البخارى .

يتزوج اثنتين وثلاثا وأربعا، ولكن الذى لا جدال فيه أيضا أن روح التشريع الإسلامى تهدف فى هذا الأمر صوب التضييق، وتعتبر كل اقلال فيه فضيلة بحيث يمكن القول أن تحديد الزواج بواحدة من أهم الأغراض التى تقرّها الشريعة الإسلامية بل وتستحبها.

الاباحة المطلقة فى الجاهلية

فقبل نزول الاسلام كان حق الرجل فى تعدد الزوجات حقا مطلقا من أى قيد أو شرط، فللرجل أن يتزوج بمن يشاء من النساء وأن يطلق منهنّ من يشاء، وأن يتصرف فيهنّ بكافة حقوق التصرفات. ولم يكن ذلك وقفا على بلاد العرب، كما قدّمنا، بل فى جميع أنحاء العالم القديم، بما فى ذلك العالم المسيحى نفسه. وقد يكون من الطريف أن نذكر فى هذا الصدد ما تشير إليه التوراة من زواج سليمان بن داود من ألف امرأة، وما يشير إليه القرآن نفسه من زواج داود بتسع وتسعين امرأة.

الاسلام يضع القيود

فلما جاء الاسلام بدأ يضع القيود والحدود لهذا التعدّد، ويرى فيه مضرة من أكبر المضار؛ فعمل على تنظيمه وتهذيبه وإصلاح مفاسده. ولكن سنة الاسلام فى هذا الموضوع كانت كسنته فى سائر الموضوعات الأخرى، وهو الأخذ بسنة التدرج والترقى الى أن ينتهى الى الصورة الكاملة من النظام المنشود. وأوسع صورة من صور التعدّد الزوجى فى التاريخ الاسلامى هو تعدّد زوجات النبى؛ إذ بلغ عددهنّ عند وفاة النبى صلى الله عليه وسلم تسع نساء، وقد كان هذا الأمر هو أكبر حجة يتذرع بها دعاة التوسع فى الزواج، والذين يصرون على حق الرجل الكامل فى تعديد أزواجه.

زوجات الرسول

ولكن دراسة بسيطة للظروف التى أدت بالنبى صلى الله عليه وسلم الى جمعه هاته الزوجات سرعان ما تنتهى بنا الى أنها كانت ظروفا خاصة بالرسول فى هذه الفترة من حياة الاسلام وهذه البيئة، ونعنى بها جزيرة العرب وعقلية قبائلها ونفسية رجالها.

أما بالنسبة لسيدنا محمد، كرجل فرد، فقد تزوج السيدة خديجة التى لم يعدل بها زوجة أخرى، ولم يضم إليها زوجة أخرى طوال شبابه والحلقات الأولى من رجولته، أى حتى الخمسين من عمره طوال مدّة إقامته فى مكة داعيا الى رسالة الحق والنور. وقد ظل هذا شأن سيد محمد الى أن ماتت السيدة خديجة، وانتقل الرسول الى المدينة حيث

بدأت فترة جديدة من حياة الرسالة كان فيها الرسول يعمل لاقامة الدولة الاسلامية، فبدأت توجد اعتبارات تملى على رسول الله أن يجعل بينه وبين أنصاره وأتباعه عروة الدم والنسب، وهى أقوى ما يربط العرب فى شبه جزيرتهم، وذلك الى جوار عروة العقيدة والايمان . ومن يجهل نفسية العرب و روحهم البدوية التى تجعل الأسرة والقبيلة محور حياتهم، لا يستطيع أن يدرك تماما الدواعى التى أدت برسول الله الى المصاهرة الى كبار أعوانه وأنصاره؛ كالزواج بعائشة وحفصة، والمصاهرة الى كبار أعدائه إبان حربهم له ليكسر من حدتهم، كما كان الحال فى زواجه بأم حبيبة بنت أبى سفيان، أو بعد هزيمتهم ليطيب خاطرهم و يؤلف قلوبهم، كزواجه بجويرية بنت الحارث زعيم بنى المصطلق، أو صفية اليهودية بنت حيى بن أخطب .

فلم يكن بين هذا العدد الكبير من النساء الذى جمعه الرسول حوله، وارتبط به برباط الزوجية من هو حقيق باختيار الرجل العادى إلا واحدة أو اثنتين . على أن القرآن لم يلبث أن حرم على النبى المضى فى الزواج لتأليف القلوب، وحظر عليه الزواج بأكثر ممن تزوج بهنّ لأى سبب من الأسباب، ولو كان هذا السبب هو الاعجاب بحسنهنّ؛ وذلك بقوله تعالى : ﴿لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهنّ﴾[1] . فهذا تحريم على النبى أن يمضى فى التعدد الى ما شاء الله ، وهو دليل على أن الإكثار من النساء أمر مكروه، و إلا لأبيح للرسول أن يمضى فيه تحقيقا للفائدة التى تزوج من أجلها الرسول بمن تزوج. قد يقول قائل : إن القرآن قد حرم على النبى الزواج بأكثر ممن تزوج بهنّ لئلا يكون ذلك سنة بين المسلمين؛ ولكن هذا القول يرده أن زواج النبى قد اعتبر خصوصية من خصوصياته لا محل للقياس عليها ، فحظر الزواج على النبى فوق من تزوج يحمل فى طياته من غير شك كراهة الإكثار والتعدد .

القرآن يحرم على الرسول زيادة عدد زوجاته

نتقل بعد ذلك خطوة أخرى فنقول: لو لم تكن روح الشريعة الاسلامية تنفر من التعدد ، لما كان هناك محل لعدم مساواتها سائر المسلمين برسول الله فى عدد

(١) آية ٥٢ سورة الأحزاب .

الزوجات ؛ لأن أى عمل يأتيه النبى مفروض فيه أن يكون خيرا مطلقا، صالحا للاقتداء والتأسى به . بل إن السير على هدى الرسول هو ركن أساسى من أركان الدين ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾(١) . ولكن الشريعة الاسلامية استثنت موضوع الزواج بأكثر من أربع فجعلته خاصا برسول الله، وحرمت على المسلمين أن يتزوجوا بأكثر من أربع فى قول الله تعالى ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾(٢) . وهكذا بدأت دائرة التعدد تضيق . فبعد الإباحة المطلقة التى كان البشر يسيرون عليها ، رأينا القرآن يحرم على الرسول أن يزيد على تسع زوجات ، ثم حرم القرآن على بقية المسلمين أن يزيدوا عدد زوجاتهم على أربع ؛ وفى ذلك دليل على استحباب الشريعة للإقلال من النساء . على أن الشريعة قد ذهبت الى أبعد من ذلك كله فى إظهار رغبتها عن الإكثار من الزوجات ، فلم تدع الزواج بأربع زوجات حرا طليقا من كل قيد أو شرط ، بل قيدته بقيد صعب التحقيق ، إن لم يكن مستحيلا على الاطلاق ، وذلك القيد هو العدل التام المطلق والتسوية بين الزوجات تسوية تصل الى أدق التفاصيل التى لا يستطيع أن يتصور إنسان إمكان القيام بها ، كما حدث فى مرض موت رسول الله حيث كان يطاف به كل ليلة محمولا على فراش المرض ليبيت عند صاحبة الدور فى المبيت . ولست أحسب أن وراء ذلك ارهاقا واعناتا للرجل ، ولكن ذلك هو الشرط الوحيد لاجازة الشريعة الإسلامية الزواج بأكثر من واحدة وقد حذرت المسلمين من إهمال هذا الشرط وحثتهم على الاكتفاء بزوجة واحدة اذا لم يأنسوا من أنفسهم القدرة الكافية على توفية الشرط وذلك بقول القرآن الكريم : ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة﴾(٣) بل لقد ذهب القرآن الى حد كاد يلغى معه هذا الحق أصلا وذلك بقوله . ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم﴾(٤) . فهذا نفى قاطع ينفى به القرآن إمكان العدل ، ومتى انتفى العدل فقد وجب الاكتفاء بواحدة .

القرآن يحرم على المسلمين ما أباحه للرسول

تقييد التعدد بشروط معجزة

وان خفتم ألا تعدلوا فواحدة ولن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم

(١) آية ٧ سورة الحشر . (٢) آية ٣ سورة النساء . (٣) آية ٣ سورة النساء .
(٤) آية ١٢٩ سورة النساء .

الرسول لا يسمح لعلى بالزواج على فاطمة

وهناك حادث فى حياة الرسول، قد جاء معززا لفكرة كراهية التعدد بما لا يدع بعده مجالا للمناقشة فى هذا الموضوع ؛ فقد روى عن المسور بن مخرمة أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقول : " إن بنى هشام بن المغيرة استأذنونى أن ينكحوا بنتهم علىّ بن أبى طالب فلا آذن لهم ثم لا آذن لهم إلا أن يحب ابن أبى طالب أن يطلق ابنتى وينكح ابنتهم فانما ابنتى بضعة منى يريبنى ما رابها ويؤذينى ما أذاها[1] ". فهذا رسول الله يأبى على سيدنا على بن أبى طالب أن يتزوج زوجة أخرى الى جوار ابنته، ويشترط عليه اذا شاء هذا الزواج أن يطلق ابنته، ويبنى ذلك على أن مايؤذى ابنته إنما هو إيذاء له، وهو تصريح من الرسول صلوات الله عليه أن الزواج على المرأة بأخرى فيه إيذاء لها . فلو أن التعدد فى الزواج أصل من أصول الإسلام، ولم تكن الشريعة الإسلامية تكره بالفعل استعمال هذه الرخصة، لما اعترض الرسول على سيدنا علىّ فى تفكيره فى الزواج بأخرى ، ولما اشترط عليه طلاق ابنته ؛ وهو الأمر الذى ترتب عليه أصل من أصول الفقه . وهو أنه باستطاعة أى امرأة أن تشترط على زوجها ألا يتزوج عليها امرأة أخرى ، فإذا تزوج فتكون طالقة منه ومتى كانت هذه روح الإسلام ونصوصه ومراميه فقد أصبح من الجائز فى كل عصر وزمان معالجة هذا الموضوع بما يتفق مع حاجة العصر ومصلحته، ويدرأ المفاسد والشرور التى قد تنجم من وراء الاسراف فى استعمال هذا الحق ؛ تطبيقا للقاعدة الجوهرية " لاضرر ولا ضرار " وأى ضرر أكثر من تفكيك روابط الأسر، وإثارة الأحن والبغضاء بين الضرائر وأسرهن وبين الأولاد وبعضهن . والحق أن أى رجل يتمتع بنصيب موفور من الثقافة، لا يمكن أن يقدم فى عصرنا الحديث على الزواج بأكثر من واحدة كما هو المشاهد وهذا دليل على أن الطبع أصبح ينفر من هذا الازدواج فى المعيشة ؛ لما يجره من آثار سيئة على الزوج والأبناء . فالرجل يقضى أيامه فى ثورات متصلة تقع من هذه الزوجة أو تلك ، ويعيش وسط الدسائس والمكائد تحيكها كل ضرة لضرتها . وهكذا لا يستطيع أن يتمتع بحياة الهدوء والسكون

(١) رواه الخمسة .

التى شرع الزواج من أجلها ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها[1] ﴾ . كل ذلك بفرض أنه قادر على الانفاق على بيتين على قاعدة المساواة، وهو الأمر الذى يكاد يكون فى حدود المستحيلات ؛ كما أشرنا من قبل .

التعدد فى الوقت الحاضر ينافى حكمة الزواج

على أن أسوأ ما بات يخلفه تعدّد الزوجات من آثار، هو ما يحدثه بين الأبناء من أمهات مختلفة، من تحاسد وتباغض وحقد وضغينة ؛ لما غرستهم فيه أمهاتهم من كراهية لأخواتهم من الزوجة الأخرى . فيكون الشقاق وتكون الفتن التى تنخر فى عظام الأسرة، بما يؤدى فى نهاية الأمر الى دمارها .

لا سبيل لتربية الأطفال فى ظل التعدد

ولعله من غير الممكن إحسان تربية أى طفل من الأطفال إلا فى ظل التفاهم التام والتعاون المطلق بين والديه ، وهو أمر لا يوجد ولا يمكن أن يتحقق والأب مشغول بأبناء آخرين من زوجة أخرى ، إذ لا بدّ أن يعنى بأبناء المقربة عنده ويهمل أبناء الأخرى، أو أن يهمل الجميع وهو الأعم والأغلب .

وعند ما كان تعدّد الزوجات فى الزمن القديم أمرا فاشيا ، كانت النساء تتقبله بصفة عامة، أو بالأحرى ترضخ له . أما فى العصور الحديثة بعد أن صار تعدّد الزوجات من الأنظمة القديمة التى لا تساير روح العصر، فقد جاهرت النساء بعدائهن لهذا النظام وتمردن عليه، فلم يعد هناك من يرضى بزواج ابنته من رجل متزوج بأخرى . وليست هناك امرأة متنوّرة فضلا عن مثقفة أو متعلمة تتصوّر فكرة الزواج برجل يجمع أكثر من زوجة أو يفكر فى الأقدام على هذا العمل . وهذا ما يجعلنا نقرّر أن هذا النظام من الأنظمة التى تسير بطبيعتها نحو الانقراض فهو لا يقوم الآن إلا فى أوساط الريف المتأخرة وأوساط العمال الفقيرة . وحتى فى هذه الأوساط أصبح من يقدمون على التعدّد من الرجال قلة لا تذكر إلى جوار المجموع، حتى سجل الإحصاء الأخير أن عدد من يجمعون بين أربع زوجات فى مصر كلها لا يتجاوز أربعمائة شخص، وهى قلة مسحوقة تنطق بأجلى برهان على أن جمع هذا العدد

---

(١) آية ٢١ سورة الروم .

من النساء قد أصبح فى ذمة التاريخ . وقد لا يصدّق ذلك تماما على مجرّد الجمع بين زوجتين ، فلا يزال الرقم الخاص بهؤلاء الأزواج مرتفعا إذ يبلغ بضعة عشر ألفا[1] ، ولكنه لو قورن بعدد الأزواج الذين يقتصرون على امرأة واحدة لدل على أنه لا يزيد فى نسبته عن جزء صغير فى المائة ، على عكس ما كان عليه الحال فى القديم ، حيث كان التعدّد هو الأصل تقريبا والاستثناء هو الاقتصار على الواحدة . وما دامت الأمور تسير فى هذا الاتجاه ، فيحسن بالتشريع أن يتدخل ليسجل ما قرّره التطوّر الطبيعى ، وما لا يخالف روح القرآن والإسلام كما قدّمنا ؛ فيحظر على أى رجل من الرجال التزوّج بأكثر من واحدة لأى سبب من الأسباب . وإذا كان هناك بعض الحالات التى يذكرها أنصار التعدّد لتسويغ التعدّد ، فان هذه الأحوال من القلة بحيث لا تصح مسوغا لإباحته فى الظروف العادية ، فضلا عن أن هذه الأحوال يمكن التماس العلاج لها عن طريق الطلاق . فاذا تخيلنا ما يشيرون اليه دائما من حدوث نقص خطير فى عدد الرجال ، بحيث يصبح عددهم نصف عدد النساء ؛ فإنه من الممكن فى مثل هذه الحالة الشاذة أن يعاد النظر فى قانون حظر التزوّج بأكثر من واحدة ، فليس هناك ما يمنع تطوّر القوانين الاجتماعية بحسب الظروف والأحوال ، وهذه هى روح الشريعة الاسلامية ، وما يجب أن نستند عليه فى ظروفنا وظروف العالم الحاضرة ، التى توجب فى الوقت الحاضر حظر الزواج بأكثر من واحدة فى مصر ؛ محافظة على كرامة النساء وتثبيتا لدعائم الأسرة ، وبرا بالأبناء وإيثارهم بالسعادة والهناء[2] .

وجوب حظر الزواج بأكثر من واحدة لأى سبب من الأسباب

---

(١) راجع الاحصائيات الرسمية .

(٢) ذلك الرأى هو ماذهب اليه الامام المصلح الشيخ محمد عبده حيث حمل على تعدّد الزوجات التى أصبحت فى مصر مفسدة حملة منكرة وقرّر أنه يستحيل تربية الأمة تربية صحيحة مع كثرة هذا التعدّد الافسادى الذى صار يجب منعه عملا بقاعدة " لاضرر ولاضرار " الثابتة فى الحديث وقاعدة « تقديم درء المفاسد على جلب المصالح » وهى متفق عليها وقد جاء فى المنار فى أول المجلد ٢٨ أنه أفتى فتوى غير رسمية بأن للحكومة منع التعدّد لغير ضرورة مبيحة لا مفسدة فيها .

فض الشركة الزوجية

و إذا كنا قد تكلمنا حتى الآن عن الشروط والأسباب التى تؤدى الى نجاح الحياة الزوجية، فقد بقى أن نشير الى إخفاق الحياة الزوجية، وهو مايسمى بالطلاق، الذى هو بمثابة فسخ لعقد الشركة الزوجية. ولقد انفردت المسيحية من بين أديان العالم وأنظمته التشريعية، فى كل العصور، بتحريم الطلاق إلا لعلة الزنى. ولكن التجربة سرعان ما أثبتت أن ذلك التحريم هو مصادرة للطبيعة البشرية ومخالفة لسنتها، وأن الأخذ به لايمكن أن ينتج إلا شرا وفسادا فى الأرض كبيرين. ذلك أن الحكمة الأساسية فى الزواج أن يكون الرجل سكنا للمرأة، وأن تكون المرأة سكنا للرجل وأن يتبادلا الحب والوفاء والتعاون على مشاق الحياة؛ فإذا ضاع الوفاء بين الزوجين أو فقد الحب والرغبة فى التعاون فيما بينهما تحولت الحياة الزوجية الى جحيم وأتون مستعر، وكلما شعر الزوج بالقيود التى تربطه بزوجته والتى لا انفصام لها زاده ذلك كراهية لزوجته، والعكس بالعكس، حتى لقد ينتهى الأمر بأحدهما الى قتل الآخر اذا لم يكن هناك سبيل للتخلص منه غير ذلك السبيل. ولقد سجل لنا التاريخ كيف أن هنرى الثامن ملك انجلترا قد أقدم دائما على قتل زوجاته كلما رغب فى التخلص منهن بعد أن رفض البابا أن يسمح له بطلاقهن. وكثيرا مانرى فى مصر حتى فى وقتنا الحاضر، أقباطا يخرجون عن دينهم ويعتنقون الإسلام لكى يتخلصوا من زوجاتهم. ولقد انتشر الزنى وأصبح اتخاذ الخليات فى أوربا عملا رسميا لايستنكره المجتمع، وذلك بسبب حظر الطلاق على المسيحيين. وعلى ذلك فقد دلت التجربة على أن حظر الطلاق وتحريمه تحريما قاطعا هو باب من أبواب الشر لا الخير، فضلا عما فيه من إهدار لحرية الفرد ذكرا كان أو أنثى. والحق أن الحياة الزوجية لايمكن بحال من الأحوال أن تنجح وأن تزدهر إلا فى ظل الحرية والرضاء المتبادل بين الزوجين، وشعور كل منهما أنه يساهم فى هذه الشركة بمحض حريته واختياره، وأنه يستطيع فى أى وقت شاء أن ينسحب من هذه الشركة. وقد اقتنع العالم المسيحى بذلك

فصدرت القوانين الوضعية التى تبيح الطلاق على خلاف الشريعة المسيحية . ولم يكد المسيحيون فى أوربا وأمريكا يحصلون على هذا الحق حتى أسرفوا فيه إسرافا معيبا ، واستعملوه فى خفة ومجانة[1] حتى كادت الحياة الزوجية كلها تتأثر بهذا الاستعمال السيئ ؛ فراحوا يفكرون من جديد فى تقييده وتحديده . ومن هنا تنشأ عظمة التشريع الاسلامى الذى اعترف منذ اللحظة الأولى بحق الطلاق ، أو بالأحرى الحرية المطلقة فى فض الشركة الزوجية إذا أخفقت ، ولم تهيئ للزوجين السعادة التى كانا ينشدانها من الزواج ، ولكنه وقد قرر الحق كاملا مطلقا ليشعر كل من الزوجين أنه مطلق الارادة والتصرف راح من ناحية أخرى يحذر من سوء استعمال هذا الحق ، ويحض على عدم الالتجاء اليه لأى سبب من الأسباب إلا أن يكون لعلة الزنى . ذلك أن الزواج وان كان عقدا فهو ليس كبقية العقود المدنية من بيع وشراء وإجارة وهبة ، ولكنه رباط مقدّس يربط الأنساب ويمزج الدماء ، ويؤلف الأسر التى يقوم عليها صرح المجتمع ، والتى اذا اضطربت أو انهارت ترتب عليها انهيار المجتمع بأكمله ، ومن هنا فقد سمى الله الزواج فى القرآن بأنه ميثاق غليظ : ﴿ وأخذن منكم ميثاقا غليظا[2] ﴾ .

وأخذن منكم ميثاقا غليظا

إذ تترتب عليه كما قدّمنا نتائج خطيرة فى الحال بالنسبة لشخص الزوجين ، وفى المستقبل بالنسبة لأولادهما . والزواج هو بمثابة غرس بذرة جديدة من بذور الحياة ، أو مدّ فرع جديد من فروعها ؛ فكل انفصام لعروة الزواج الوثيق إنما هو قطع لشريان من شرايين الحياة ، وحجر عثرة فى سبيل نموّها وكمالها وحسن اطراد سيرها ؛ فلا ينبغى الإقدام عليه فى يسر وسهولة أو طيش ورعونة لمجرد أنه من الحقوق المباحة ، وهو ما نبه إليه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم " أبغض الحلال إلى الله عز وجل الطلاق " وفى رواية أخرى " ما أحل الله شيئا أبغض إليه من الطلاق " وهذا الحديث يجب أن يعتبر ركنا أساسيا من أركان مباشرة هذا الحق ،

أبغض الحلال الى الله عز وجل الطلاق

---

(١) أصبح من الشائع فى أمريكا أن تطلب المرأة الطلاق من زوجها لأنه لا يحب الكلاب ، أو لأنه لا يحسن ربطة عنقه ، أو لأنه لا يشاطرها آراءها فى جمال كلارك جابل ، أو خفة دم موريس شفالييه ؛ وهكذا .

(٢) آية ٢١ سورة النساء .

فلا يكون طلاق إلا بعد استنفاد كل وسائل الإصلاح والعلاج، ولا يكون إلا بعد تفكير طويل هادئ، ومراجعة ومشاورة بين الزوجين، بل وبين آليهما وذويهما وفى ذلك يقول الله تعالى : ﴿ وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما ﴾ (١) .

وذهب القرآن إلى حد حض الرجل على التمسك بزوجته حتى لو كرهها ورغب عنها وذلك بقوله تعالى : ﴿ وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا ﴾ (٢) .

فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا

ولكل هذه الاعتبارات مجتمعة، يجب ألا يتم طلاق بين الرجل وزوجته إلا فى ساحة القضاء، وبعد أن يستنفد القاضى كل ما فى جعبته من محاولات التوفيق والإصلاح، بما فى ذلك الاستعانة بجهود الأقارب والأصدقاء . وأن يتخصص لذلك الأمر قضاة ممتازون يكونون أعرف من غيرهم بطبائع البشر وعلوم النفس ويتمتعون بشخصية قوية، ليكون لذلك كله أحسن الأثر فى إصلاح الزوجين وإقناعهما بالتمسك بحبال الزوجية، فاذا أبى أحد الزوجين بعد ذلك كله إلا الانفصال فقد وجب على القاضى أن يصدق على الطلاق على الفور؛ فليس من المصلحة أن يبقى أحد الزوجين فى الشركة الزوجية برغم أنفه، إذ لا يترتب على ذلك إلا الفساد والخسران . فنحن ممن يقولون بوجوب أن يكون الطلاق أمام القاضى وعن يد المحكمة لا بأمر القاضى وبقرار المحكمة، أى أن الحرية المطلقة فى استعمال الحق يجب أن تبقى للزوج أو للزوجة متى اشترطت هذا الحق لنفسها، ولا يجوز بحال أن يسلب القضاء من الزوجين هذا الحق، وإنما أشترط ألا يباشر هذا الحق إلا فى ساحة القضاء وبعد أن يستنفد القاضى كل جهده فى التوفيق والإصلاح؛ ليكون ذلك بمثابة فرصة جديدة يعدل فيها كل من الزوجين عن رأيه، فلا يكون طلاق فى ثورة غضب، ولا يكون طلاق فى تسرع يعقبه الندم، ولا يتم طلاق إلا بعد تروّ وتدبر وتفكير

لا طلاق إلا على يد القاضى

---

(١) آية ٣٥ سورة النساء .

(٢) آية ١٩ سورة النساء .

طويل . يقول البعض : ولكن فى عرض هذه الأمور على القضاء إفشاء لأسرار العائلات ؛ ولكن هذه الأسرار لا سبيل لكتمانها متى حدث الطلاق بين الزوجين ، إذ لا مناص من أن يعمد أحد الطرفين إلى التشهير و إذاعة هذه الأسباب ؛ فإذا تم التراضى والتوافق بينهما على كتمانها فليس هناك ما يحول بين الحرص على هذا الكتمان أمام القاضى نفسه الذى يجب أن يقضى بالطلاق متى أصر عليه الزوجان ولو بدون إبداء أى سبب من الأسباب .

مبررات الطلاق

وعندى أنه لا يوجد ما يبرر الطلاق إلا إذا انعدمت أسباب التعاون بين الزوجين ، وأصبحت الحياة فيما بينهما مستحيلة لأى سبب من الأسباب ؛ كما لو انعدم الوفاء بين الزوجين وأقدم كل منهما أو أحدهما على الاخلال بعهود الزوجية ومواثيقها فالرجل الذى يهجر زوجته ، والمرأة التى تهجر زوجها ، والزوجة التى تخون زوجها مع آخر ، والزوج الذى يخون زوجته مع أخرى ، والمرأة المسرفة المتلافة التى تنكب زوجها فى ماله ، والزوج الذى يغتال حق زوجته ويجردها من ثروتها ليبعثرها على شهواته ونزواته ، والمرأة النزقة التى تنصرف عن تربية أولادها وتفرغ الى لهوها وزينتها ولا تقوم بواجب زوجها وبيتها عليها ، والرجل الذى لا يعود الى بيته الا مخمورا والذى ينفق أمواله على موائد القمار ولا يعبأ بنفقة أولاده وتربيتهم ، كل هذه الأسباب وأمثالها تدعو ، من غير شك ، الى هدم الحياة الزوجية من أساسها . فإذا تعذر الإصلاح واعادة المرأة أو الرجل الى الجادّة فقد أصبح الطلاق جائزا ومشروعا بل ومستحبا كلون من ألوان العقوبة ، حتى تكون للأسرة قداسة وهيبة وحقوق محترمة ، يعرف كل من الزوجين أنه لا يستطيع المساس بها دون أن يعرض أسرته للانهيار .

خاتمـــة

إلى هنا تنتهى يا بنى رسالتى لك عن الزواج والمرأة، بعد أن فصلت لك الأمر عن المرأة وحقوقها وعلاقتها بالرجل فى مختلف الظروف والأحوال . وقد شاءت الأقدار ألا أفرغ من تحرير هذه الرسالة حتى يقع لى فيها حادث من هذه الحوادث التى تلم بحيـاة الأسر فتهز كيانها وتدخل على أعضائها الحـزن والألم، وأعنى بذلك الحادث ما يصاب به الأبوان من الفجيعة فى أولادهما، هؤلاء الأولاد الذين هم هـدف الزواج الأكبر، ومحور حياة الأم ورجاء الأب ، وسـنة الحياة فى بقائها واستمرارها واندفاعها فى سبيل التطور والارتقاء .

بدأ الحادث فى الأيام الأخيرة من شهر رمضان والأيام الأولى من فصل الخريف حيث كنا معتقلين جميعا: أبوك وأمك وأخوك وأنت ـ فى معتقل خاص بنا فى مصر الجديدة وكنت أنت وأخوك فى أوج صحتكما وكنت أنا وزوجتى فى أوج سعادتنا بكما فمرض أخوك إبراهيم العزيز اللطيف الجميل، ولازم الفراش فخلنا الأمر عارضا لا يلبث أن يزول، ولكنك سرعان ما لحقت به بعد أيام ثلاثة، فانطرحت على فراش المرض، وارتفعت حرارتكما ارتفاعا مخيفا، اذ بلغت الواحدة والأربعين وكان ذلك أمرا عجبا، ولم ينقض أسبوع حتى اكتشفنا أنكما مريضان بأخبث الأمراض وأفتكها، وأعنى بهـا حمى التيفود، هذه الحمى التى مات بها كل من هو عزيز علىّ من أقربائى، فمات بها أخى الأكبر، ومرضت بها فى طفولتى، وماتت بها أمى على ما أذكر إبان مراهقتى، ومات بها بعد ذلك أحب الأخوة الى نفسى وأكثرهم تأثيرا فى حياتى، وهو عمك مصطفى الذى أدين له بالعناصر الأولى من ثقافتى فى الحياة . فلما اكتشفت أنكما مريضان بالتيفود فارقنى هدوئى وأحسست على الفور باقتراب الفاجعة فانخلع قلبى وراحت الدموع تنهمر من عينى انهمارا لا عهد لى به من قبـل ..... ونقلكما البوليس إلى المستشفى بعيدا عنى، بينا ظللت فى معتقلى أرقب على البعد، فى رجفة وأمل، الأخبار التى تترامى الىّ من حين لآخر . ثم وقع القضاء المحتوم، وكانت هذه الليلة التى جاءنى

فيها خالك ووالدى يحملان الخبر، وهما يحاوران ويداوران ويتدرّجان ويترفقان بى لإبلاغى الخبر، وقد كان ذلك كافيا لكى أحذر النكبة فأسرعا، إلى مواساتى بهذا الاصطلاح الذى ترتجف له النفس عند سماعه لأول مرة «البقية فى حياتك» لقد مات ابراهيم ... مات ابراهيم وفارق الدنيا ولم يعد من أهلها على الأقل بالجسد، ولن أسمع بعد اليوم ولن تسمع أمه ضحكاته العذاب، وحديثه وموسيقاه الشجية التى كان يبعثها فى النفس حتى فى بكائه وعويله، ذهب وخلفنا فى هذا المعتقل ولن يملأه بعد اليوم، كما كان يفعل، بالسعادة والهناء. لن ينتهز بعد اليوم فرصة سجودى فى الصلاة ليداعبنى ويعبث معى، لن يطلب منى أن أرفعه بذراعى فى الهواء بينما يصرخ فرحا مسرورا سعيدا هاتفا بك ليشركك فى سعادته، لن ينظر الىّ بعد اليوم بعينيه الجميلتين معاتبا لى بعض ما كنت آخذه به من الشدّة ... ذهب فذهب معه من هذه الدار الأنس والحرارة والحياة ... ذهب بدون أن أراه وأن أضمه بين ذراعى وأقبله للمرّة الأخيرة، وأرجو منه أن يسامحنى على كل ألم أكون قد أحدثته له فى يوم من الأيام ... ذهب إبراهيم وقضى الأمر، ولم تبق منه إلا الذكريات. ولأول مرة فى الحياة أحسست بلذعة الموت ولوعة الفراق تهز روحى من الأعماق، بما لم أشعر به عند مافارقتنى أمى وفارقنى أخواى، وما لم أكن أتخيل أننى سأشعر به فى يوم من الأيام ... على أن المحنة لم تكن قد تكاملت بعد، فقد كنت لا تزال طريح الفراش بنفس المرض الذى مات به، وكان الخطر لا يزال مسلطا فوق رأسك، فشغلنا عن بعض مصابنا بابراهيم، فكفكفنا دموعنا وتمالكنا أنفسنا وتوجهنا بالرجاء الى الله أن يجعل فى شفائك العوض، وأن يجعل نجاتك البلسم لجرحنا؛ ولكن الأطباء أخبرونا فى أحد الأيام أن حالتك قد ساءت وأن القلب قد تسمم وأسرعت دقاته، ولم نكن فى حاجة إلى قول الأطباء لندرك هذا الخطر، فقد ارتفعت حرارتك بعد الانخفاض، وأبت بعد أربعين يوما أن تهبط ولو خطا واحدا أو دقيقة من الدقائق. وراح جسدك ينتفض ويرتجف ارتجاف المودّع للحياة، فوقفت الممرضات حائرات كسيفات البال، وعجز الأطباء عن أن يجدوا كلمة يدخلون بها

الأمل فى نفوسنا ؛ فدل ذلك على أن سراج العمر يوشك أن ينطفىء ، وأنك ذاهب الى حيث ذهب ابراهيم ، مجرعا إيانا الكأس التى جرعنا إياها ابراهيم مرتين ، وتاركا إيانا بغير عزاء أو عوض من أى لون كان ... يا لقسوة هذه الساعات والأيام يا بنى وما أشدّ مرارتها ، إذ يوارى الانسان آبنا فى التراب وأن يعود لفراش الثانى ليراه يوشك أن يبدأ نفس الرحلة ، ليضاعف الحسرة ... ما أقسى أن يرى الانسان أنس حياته يتحوّل الى وحشة ، ونور عمره يتحوّل الى ظلمة ، وأن يضاعف فى مرارة ذلك كونه مسلوب الحرّية رهين الحبس والاعتقال ، لا يسير الا بالحراس ولا يتحرك الا بتصريح من الحكومة ، ولا يزور ابنه المريض الا بعد رجاء و إلحاح . الحق أنه ليس للآلام فى هذه الدنيا حد لتقف عنده ، فكلما كانت نفس الإنسان كبيرة كانت آلامه جد عميقة ... لقد كنت أتمثل فى هذه اللحظات كلما يحيط بى من ظروف سيئة ، وكلما حدّثتك عنه فى رسالتى عن الصبر من انفضاض الاخوان وتغير الأحوال وتنكر الأنصار والأصدقاء ... كنت أستعرض لنفسى جهاد خمسة عشر عاما ، وكيف لا أعرف من ثمرات هذا الجهاد الا أننى معتقل ... معتقل منذ ثلاث سنوات تقريبا ، لا يتصل بى أحد ، ولا أتصل بأحد ، والدنيا تقوم وتقعد من حولى ، وأنا الذى خلقت من نشاط وحركة قعيد الحبس والاعتقال ، مقضى علىّ أن أعيش فى الكسل والخمول والطعام والشراب . وكان الشئ الوحيد الذى يبعث فى نفسى بارقة من الأمل ، و يتيح لى لونا من ألوان الجهاد والعمل من أجل المستقبل ، هو هذه المعيشة المشتركة فى المعتقل مع زوجتى و ولدىّ ، حيث أستطيع أن أعنى بتربيتهما ، وأن أعدهما جنديين صادقين من جنود الوطن ، أرضعهما منذ الصغر لبان الوطنية والفضيلة ، وحب الخير والطموح نحو المثل الأعلى ، و أن أورثهما بعد موتى رسالتى فى تحرير بلادى من الغاصب الأجنبى . كنت أرى فى هذه المهمة بعض ما يشغلنى و يسلينى ، فكانت لنفسى بمثابة خط الدفاع الأخير ، فإذا بالمحنة تأبى إلا اقتحام هذه القلعة الأخيرة وتدميرها فقوضت أحد ركنيها ، وسعت لتقويض الركن الآخر والاجهاز عليها ، فمن الذى يلومنى إذا دب إلى الجزع أو أخذ من نفسى الألم ؟ ...

هل بقى لى من أصدقاء أعيش معهم إلا أنتما ؟ ... هل بقى لى من رفقاء فى الاعتقال إلا أنتما ؟ ... ألم نكن نلعب سويا ونلهو سويا ، ونأكل سويا وننام سويا ، ولا تقع عيوننا إلا على أنفسنا طوال الليل والنهار لمدّة عام كامل قضيناه فى هذا الاعتقال ؟ .

على أن المسألة لم تكن مسألتى بقدر ما كانت مسألة أمك ... لقد كانت تزدهى بكما وتتعزى عن كل ما يصيبنا فى الحياة بمرآكما ، لقد كان مجرّد مرض أحدكما يمرضها ويسقمها ويمضها ، ومع ذلك فقد احتملت كارثة إبراهيم ببسالة أدهشتنى ، وما ذلك إلا اهتماما منها بأمرك وحرصها على شفائك ، فماذا يكون من أمرها إذا ماجفعت فيك بعد فجيعتها فى إبراهيم ! وأنى لها العزاء وكيف السبيل إلى إنقاذها ؟... لقد كان أخوف ما أخافه أن تنهار أعصابها تحت هذه الصدمة الجديدة ، وأن يتداعى كيانها تحت هذه الضربات المتوالية .

وبعد يا بنى :

تلك أيام مضت وانقضت ، ولا مجال أو سبيل لاستعادة ذكرياتها دون أن تتقيح جراح توشك أن تندمل ، وقد عاهدت الله أن أنساها وألا أذكرها إلا بالحمد والثناء ، وأنا أراك الآن تلهو وتلعب أمامى من جديد وتعوّض بحيويتك التى تضاعفت بعض ما كنت أجده منك ومن أخيك ، بعد أن نجوت من براثن الخطر بمعجزة من معجزات الرب ... نجوت يا بنى بعد أن سلمنا فى أمرك ، ورضخنا لقضاء الله حامدين شاكرين ... نجوت يا بنى بعد أن حدّثت بعض الأقرباء فيما يتبع بشأن تجهيزك وتشييع جنازتك ، نجوت يا بنى بالرغم من ذلك كله ، وأن سعادتى بما يتمثل فى هذه النجاة من رحمة إلهية وحنان ربانى هى أضعاف أضعاف سعادتى بنجاة شخصك ، فقد قضيت ليالى طوالا وأنا أتضرع إلى الله أن يبقيك من أجل والدتك ، من أجل جدّتك ، من أجل خالك ، من أجل مصطفى الوكيل الذى سميتك باسمه ، من أجل أعزائى الذين تنفطر قلوبهم لمصابى ، والذين ظلوا مخلصين لى بالرغم من كل شىء ، فأجاب الله الدعاء وحقق الرجاء ؛ فكانت المعجزة وكان الشفاء بعد

شهرين كاملين من المصارعة مع الداء شهرين كاملين ، لم يتداخل فيهما الأطباء إلا بالمراقبة والملاحظة ، فقد طلبت منهم وقد قالوا كلمتهم الأخيرة أن يدعوا الأمر لله إن شاء أبقاك وأحياك وإن شاء قضى فيك مشيئته فكانت نجاتك من الخطر بدون مساعدة من الأطباء لتتجلى قدرة الله فى أكمل صورها إذ يحيي العظام وهى رميم . فله الحمد والثناء على ما غمرنا به من نعمة وأن بدّل أحزاننا فرحا وشدّتنا فرجا . وله على العهد والميثاق أن أعيش طول عمرى مجاهدا مكافحا فى سبيل الحق والحرية والفضيلة ٤

معتقل مصر الجديدة فى يناير سنة ١٩٤٣

تمت الرسالة بعون الله تعالى

وتليها ثلاث رسائل فى الحرب والحرية والعلم

المحتـــويات

صفحة

تعـــريف... ... ... ٣

الفصـــل الأول — الزواج ٥

ضلال الداعين الى محاربة الغريزة الجنسية — لا رهبانية فى الاسلام — فتنة المرأة وخطرها — النظريات الداعية الى الاباحة — خطر الاباحية على الأمن والسلام — ضرورة الزواج للنسـل وتربية الأطفال — شاهد حى من المجتمع الفرنسى — الدولة بدل الأسرة — نظرية التسـوية المطلقة بين الرجل والمرأة فى الوظيفة — هل فى الزواج والأمومة غض من شأن المرأة — الخلاصة .

الفصل الثـانى — المرأة وحقوقها ٣٠

حق المـرأة المطلق فى مساواة الرجل من حيث المكانة والاعتبار — الاسـلام والمرأة — مساواة المرأة بالرجل فى الحقوق المدنية — حق المرأة المطلق فى التصرف بشخصها — مشاركة النساء للرجال فى سائر مناحى النشاط الانسانى وضروبه — حق المرأة فى التعلم والتعليم — حق المرأة فى احتراف أى حرفة شريفة عند الضرورة — حق النساء فى المساواة مع الرجال فى الحقوق العامة — المرأة وحق الانتخاب — الخلاصـــة .

الفصل الثـالث — بحث فى السـفور والحجاب ٥٨

حض النبى صـلى الله عليه وسلم على النظر للمخطوبة — الحجاب فى الاسلام خاص بنساء النبى — الحجاب كما فسره الرسول بالنسبة بأزواجه — هل الحجاب مانع للفتنة — ليس معنى السفور التبذل وزوال الاحتشام — الخلاصة .

الفصل الرابع — الشروط اللازمة لنجاح الحيـاة الزوجية ٨١

السن الصالحة للزواج — وجوب التكافؤ بين الزوجين — وجوب رضاء الزوجين للعقد طواعية واختيارا — الصحة الجسدية ووجوب كمالها فى الزوج والزوجة — حق كل من الزوجين على شريكه — حق الزوجة على زوجها — بحث فى تعدد الزوجات — فض الشركة الزوجية — مبررات الطلاق — خاتمة .

(مطبعة دار الكتب المصرية ٤٢/١٩٤٥/٢٠٠٠)

893.797
H95

AUG 2 4 1964

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU58837400
893.797 H95 Zawaj wa-al-marah /

893.797 – H95